مشوار كتب الرحلة

(قديماً وحديثاً)

دكتور سيد حامد النساج



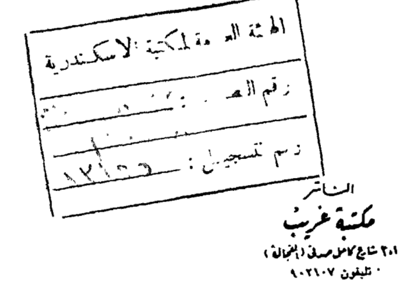
مكتبة غريب

مشوار كتب الرحلة

(قديماً وحديثاً)

تأليف

دكتور سيد حامد النساج



الناشر
مكتبة غريب
٣٠١ شارع كامل صدقي (الفجالة)
تليفون ٩٠٢١٠٧

كلمة

هذا الكتاب الصغير حجماً ، جزء من تجربة أقدمت عليها ، حين أصدرت كتابى (رحلة التراث العربى) ١٩٨٤ . وكان أوّل تعامل لى مع تراثنا العربى القديم . وقد استندت التجربة فيه إلى اختيار خمسة من كتب التراث ، درست كلاً منها دراسة تحليلية تكشف عن أبعاده الفكرية والفنية . ثم تابعت تأثيره وامتداده فى الكتب العربية التى صدرت بعده ، على امتداد حركة المكتبة العربية ، حتى العصر الحديث .

وقد وجدت الفكرة صداها المأمول عربيا . وطبع الكتاب أربع طبعات . بالإضافة إلى عدد وافر من الدراسات والمقالات النقدية التى وقفت عنده .

وكنت قد طالبت بأن ننظر فى تراثنا نظرة جماعية ، وأن نقوم على دراسته من خلال رؤية عربية علمية موضوعية ، تشترك فيها فرق بحث تمثل تخصصات متنوعة ، وبلاداً عربية كثيرة . وكتاب اليوم خطوة فى نفس الاتجاه . يتناول موضوع « الرحلة » . والكتب التى ألفت فى هذا الإطار ، منذ الرحلة التى دونها « ابن جبير » ومن أتى بعده من الرحالة العرب الذين سجّلوا رحلاتهم فى أسلوب أدبى نثرى ، حتى بعض الرحلات التى كتبت فى السبعينيات والثمانينيات من هذا القرن .

وقد نجد تعريفاً باتجاهات الرحلة ، وموضوعاتها ، واختلاف أساليب تناولها للأشخاص ، والأماكن ، والأحداث ، وما شابه ذلك . وقد نظفر بمحاولة تحديد خطوات تطور هذا اللون من الكتابة : شكلاً وموضوعاً ، لغة ورؤية . وقد نقرأ عناوين كثيرة لرحلات لم نقف عندها ، وإنما كنا نشير إليها محاولين تجسيد أهمية دراسة « الرحلة » والالتفات إليها باعتبارها شكلاً من الأشكال الأدبية ، ينبغى أن يلتفت إليه .

وقائمة المصادر والمراجع تكشف عن الجهد المبذول ، بالإضافة إلى عناء تدريسه لسنوات متصلة لطلاب الدراسات العليا ، هنا وهناك ، ومحاورتهم فيما كانوا يثيرونه حول هذا الموضوع .

وفقنا الله لما فيه خير الثقافة العربية الأصيلة والمعاصرة .

د. سيد حامد النساج

شغلت الدراسات الأكاديمية والنقدية فى عالمنا العربى المعاصر ، بدراسة فنون الأدب المتباينة ، من قصة قصيرة ، ورواية طويلة ، ومسرح، ونقد ، وشعر . لكنها لم تلتفت - طويلاً - إلى لون أدبى نثرى ، شهد عدداً كبيراً من التآليف فيه . وأقدم على الكتابة فيه عدد وافر من الكتاب العرب الأعلام . ويستطيع الباحث المدقق أن يظفر بمئات الكتب فى هذا اللون من الكتابة . ألا وهو «أدب الرحلات» . أى ذلك النثر الآدبى الذى يتخذ من «الرحلة» موضوعاً . أو بمعنى آخر : الرحلة عندما تكتب فى شكل أدبى نثرى مميز ، وفى لغة خاصة ، ومن خلال تصور بناء فنى له ملامحه وسماته المستقلة .

بل إن هنالك من يبالغ فيزعم أن آدب الرحلة أو الرحلات عموماً (من أهم فنون الأدب العربى ، لسبب بسيط ، وهو أنها خير دليل على التهمة التى طالما اتهم بها هذا الأدب ، ونقصد تهمة قصوره فى فن القصة . ومن غير شك من يتهمونه هذه التهمة لم يقرءوا ما تقدمه كتب الرحلات من قصص عن زنوج إفريقية وعرائس البحر وحجاج الهند وأكلة لحوم البشر وصناع الصين وسكان نهر الفولجا وعَبَدة النار والإنسان البدائى والراقى مما يصور الحقيقة حيناً ، ويرتفع بنا إلى عالم خيالى حيناً آخر) .

هذا القول للاستاذ الدكتور شوقى ضيف فى كتابه (الرحلات) صفحة ٦ مدفوع بحماس شديد للأدب العربى القديم ، فى محاولة لتأكيد أن هذا الأدب عرف فن القصة ، والدليل على ذلك موجود فى كتب الرحلة. والحق أن هذا الحكم على إطلاقه قد يبدو مبالغاً . ذلك أنه إذا توفرت عناصر القصة فى بعض الكتب ، فإنها قد لا تتوفر فى غيرها . وعند تأكيد مثل هذا الحكم ينبغى دراسة فن القصة أولاً ، من حيث بناؤها الفنى ، وأسسها ، وخصائصها . ثم تأتى – بعدئذ – مسألة الكشف عن مدى تمثل كتاب الرحلة لها ، من خلال ماكتبوه جميعاً .

كما أن القول بأن كتب الرحلة تصور الحقيقة حيناً ، وترتفع بنا إلى عالم الخيال حيناً آخر ، لا يمكن إطلاقه هكذا بعمومية لا تقبل الجدل والمناقشة . إذ إن منها – وهو الأغلب الأعم – يلتزم بالحقيقة المجردة ليس غير . ومنها ما يسمح – فقط – بمساحة بسيطة من الخيال . إذ إن نسبة الخيال فى كتب الرحلة قليلة . حيث إن هذا اللون من الكتابة يعتمد فى الأساس على الواقع : أُناسى وآثار ومعلومات وأماكن وألوان من الطعام والشراب والأزياء ، وما شابه ذلك مما لا يتيح الفرصة للكاتب حتى يعمل خياله أو يطلقه كيف يشاء . فالتعديل أو التغيير أو التبديل أو وصف الأشياء بما ليس فيها ، قد يبعد الكاتب عن الحقيقة ، ويدفع إلى اتهامه بالكذب والتزييف .

ومن الكتاب من يكتفى بعرض المعلومات التى يشاهدها فى رحلته ، دون تدخل بلاغى ، لأنه يستهدف إيصال المعلومات والمشاهد بدقة ووضوح ، دون تأويل ، ودون استخدام لكلمات قد تصرف ذهن القارئ عن

معرفة الحقيقة . ومنهم من ينقل الصور والمشاهد على نحو يحقق التأثير الوجدانى ، أو ينقل الأحاسيس والعواطف التى يجدها فى نفسه من يجتلى تلك المشاهد والآثار والصور . وهذا البعد هو الذى يملأ النفس متعة وتأثيراً ، ويجعل للرحلة سمة أدبية بدلاً من أن تقف عند حد التسجيل والتدوين والجمود .

وقد نلمس ذلك فى بعض كتابات الجغرافيين العرب ، الذين اتبعوا هذه الوسيلة فى وصف عالمهم والعوالم المحيطة بهم . إذ عُنوا بالحديث عن عادات الأمم والشعوب ، وطباعها ، وما بديارها من آثار وعجائب ، وقصّوا ما عندها من أساطير وخرافات . وبذلك أصبحت كتبهم الجغرافية كتباً أدبية .

لعل وجود هذين الأسلوبين فى تناول الرحلة ، هو الذى جعل بعض من تصدوا لها يذهبون إلى تحديد قيمتين بارزتين فى كتب الرحلات ، هما القيمة العلمية ، والقيمة الأدبية . الأولى تأتى مما تحتويه معظم هذه الرحلات من كثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها مما يدونه الرحالة تدوين المعاين فى غالب الأحيان ، من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة . بمعنى أنه ينقل ما يراه ليضعه بين أيدى الجغرافيين أو المؤرخين أو علماء الاجتماع أو الاقتصاديين .

إنه وهو يدون مشاهداته الجغرافية على سطح الأرض إنما يعمل فى خدمة علم الجغرافيا . فهو عندما يصف الممالك والبلدان والأصقاع والأقاليم والمدن والمسالك ، وعندما يتحدث عن الطبيعة والمناخ ، وظاهرات

توزيع السكان وغير ذلك مما يعد من صميم الدراسات الجغرافية ، إنما يعتبر من هذه الناحية مرجعاً أساسياً بالنسبة لمن يتناول هذه الموضوعات بالدراسة . وما يقال عن الجغرافيا يقال عن التاريخ والأدب والآثار والاقتصاد والأديان والأساطير . ذلك أن الرحلات سجل حقيقى لمختلف مظاهر الحياة فى مجتمع بعينه ، ومرحلة تاريخية محددة .

أما أسلوب الكتابة ، واللغة التى يتوسل بها كاتب الرحلة ، فإنه قد يضيف إليها قيمة أدبية ، وبخاصة عندما يحتفل الكاتب بالأساطير والخرافات ، وبعض المحسنات البلاغية ، وجمال اللفظ ، وحسن التعبير ، وارتقاء الوصف ، وبلوغه حداً كبيراً من الدقة ، علاوة على ما قد يستعين به – أحياناً – من أسلوب قصصى ، سلس ، مشرق . وهذا هو الذى يجعل بعض الدارسين يدخلون أدبيات الرحلات ضمن فنون الأدب العربى، عندما تصبح قراءة هذا اللون من الكتابة متعة ذهنية .

هناك قيمة أخرى لكتب الرحلات ، هى القيمة التعليمية . من حيث إن هذا النوع من الكتب يسهم فى تثقيف القارئ وإثراء فكره وتأملاته عن الآخرين . ذلك أن كتاب الرحلات يصورون إلى حد كبير بعض ملامح حضارة العصر الذى قاموا فيه برحلاتهم ، وثقافة البلدان التى ذهبوا إليها ، وأحوال الشعوب التى اختلطوا بها . إن مثل هذه الكتب فى مثل هذه الحالة تعتبر مصدراً لوصف الثقافات الإنسانية . كما تعد أكثر المدارس تثقيفاً للإنسان . فالاختلاط والحياة مع الشعوب المختلفة ، إضافة إلى الاجتهاد فى دراسة أخلاقهم وطباعهم ، والتحقيق فى دياناتهم ونظم حكمهم ، غالباً ما تضع أمام الفرد مجالاً طيباً للمقارنة ، من حيث إنها تساعده على إعادة النظر فى تقاليد ونظم بلده .

أيا ما كان الأمر فإن كتب الرحلة تتسم بعدد من السمات المشتركة. مثل : الشمول والتنوع . وهما ملمحان بارزان في معظم ما كتب في هذا الميدان . حيث تتسع موضوعات كتبهم فتشمل التاريخ والجغرافيا والدين والاجتماع والسياسة . كذلك فإنها تعنى بالوصف الدقيق ، والتصوير الأمين ، والنقل الصادق . بدافع تحرى الدقة تحرياً علمياً موضوعياً . وهى عندئذ تتحلى بالابتعاد عن الهوى والميل والغرض الذاتى . إذ إن منهم من لم يقبل الأخبار دون غربلة أو دون التأكد من صحتها . ثم إن مثل هذه الكتابات كانت تصدر عن التزام مفاده أن العرب أمة واحدة ذات حضارة إنسانية عالمية ينبغى لها أن تعود إلى مكانها . ولن يتأتى هذا إلا بتوحيد العرب ، وخروج المستعمرين الأجانب من البلدان العربية . كى ينهض الشعب العربى ، ويسعى لتحقيق ذاته وحقه فى الحياة والوجود .

هذه هى نقطة الانطلاق ، والهدف الذى يسعون إليه . بالإضافة إلى ما سبق أن أشرنا إليه .

وثمة دوافع متنوعة كانت وراء احتفال العرب المسلمين بالرحلة ، والانتقال والتجوال . وربما تكون هذه الدوافع وراء تحديد اتجاهات الرحلات وتصنيفها لدى البعض . ولا ننسى أن فى القرآن الكريم آيات كثيرة تلفت النظر إلى أهمية السفر ، وفضيلته ، وتدعو إلى النقلة والترحال . من ذلك قوله تعالى : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) . وقوله (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) . فالرحلات تزيدنا علماً بقدرة الله وحكمته ، وتدعو إلى شكر نعمته . من هنا أمسك العرب المسلمون بزمام الرحلة وتحمسوا لها . مما جعل الرحلة عندهم تنال حقها الكامل من الاهتمام والأمان ، واستحقاقها الفعال من قوة الدافع والحوافز على الطريق فى البر والبحر .

ومن الدوافع ما يذكره ابن خلدون فى مقدمته الشهيرة : (والرحلة لابد منها فى طلب العلم ، ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرحال) . هناك الفقيه أبو بكر محمد بن العربى «١٠٧٦ - ١١٤٨» الذى رغب فى الدراسة فطاف فى الشام والعراق والحجاز ومصر ثم عاد إلى الأندلس . وجدير بالذكر أن الرحلة بغرض مقابلة الشيوخ والعلماء طلباً للعلم ، أصبحت فى العصور الاسلامية معياراً للحكم على مستوى العلماء والفقهاء . إذ إن طلب العلم فى مراكز البلاد كان يقتضى رحلة طلابه من مدن مختلفة فى أنحاء البلاد إلى مراكز العلم فيها . تساعدهم فى ذلك الوحدة السياسية والدينية والثقافية .

وفى ظل الفتوح الاسلامية خلقت أسباب للرحلات . وهل عملية الفتوح إلا رحلة أو مجموعة من الرحلات ، قدمت للعرب تجارب ومعارف جديدة ، وخلقت ظروفاً استلزمت الرحلة والبحث والتنقل ؟! فقد وحّد العرب البلدان التى فتحوها ، ولكى تتيسر إدارتها كان لزاماً عليهم التعرف التام عليها : إدارياً ومالياً وضريبيا . كما كانت الدولة الاسلامية فى حاجة إلى معرفة الطرق الكبرى التى تصل أقاليمها . فكان كتاب (المسالك والممالك) لابن خرداذبة . ثم كان كتاب (الخراج) لقدامة بن جعفر ، الذى بين فيه الطرق والمسافات ، وكيفية جباية الضرائب ، وضمنه أخباراً كثيرة تتعلق بأحوال الدولة والبلاد المجاورة لها .

واعتباراً من القرن الثالث عشر أخذ طابع الرحلة فى طلب العلم يطغى على كتابات كثير من الرحالة . ورحلة أبى محمد العبدرى ، وابن عمر عبدالله بن رشيد النشريسى ، مثال على ذلك . حيث نلاحظ اهتماماً

بالأساتذة والعلماء الذين التقى بهم كل واحدٍ منهما . إلى جانب وصف المكتبات ودور العلم وبعض الرفاق من الطلاب ، ووسائل التدريس . بل إن منهم من ترجم لذاته وكتب سيرة حياته الشخصية ، جنباً إلى جنب ترجمته للعلماء والشيوخ والأساتذة الذين خالطهم ، ونماذج مما كتبه بعضهم من شعر أو نثر يعبر عن ذوق العصر وحضارته . وقد نجد فى ابن خلدون تجسيداً لهذا الاتجاه فى كتابه (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً). وهذا اللون من الترجمة الذاتية نجد له امتداداً فيما كتبه رحالة العصر الحديث . إذ إنا نظفر بعدد وافر من السير الشخصية وقد طغت على كتب الرحلات .

ويكمن الدافع الدينى وراء كتابة كثير من المشاركين فى هذا الميدان. فقد كان الحج إلى مكة ، حيث يتجشم المسلمون كل مشقة فى سبيل أداء هذه الفريضة ، وزيارة قبر الرسول عليه السلام فى المدينة ، وراء وصف كثير من هؤلاء الحجاج طريقهم إلى الأماكن المقدسة فى رحلات مختلفة . ذلك أن الحج رحلة يتشوق إلى القيام بها كافة الناس ، وليس علماؤهم وفقهاؤهم فقط . لأنه فريضة على كل مسلم . لذا اكتسبت رحلة الحج صفة تراثية شعبية . وهل هناك من ينكر أن «ابن جبير» قص علينا ماشاهده فى طريقه إلى حجه وعودته منه ؟ وان ابن بطوطة دعاه داعى الحج فلباه وهو فى الثانية والعشرين من عمره ؟ وأن رحلة محمد السنوسى (الرحلة الحجازية) تسعى لتحقيق هذا الغرض وحده ؟

كذلك كانت هنالك دوافع تجارية . فالتجارة أمر يقتضى القيام بالرحلة والسفر . وكان التجار يضربون فى أراضٍ جديدة عن طريق القوافل ، وعن طريق البحر ، وقد وصلوا فى سبيل ذلك إلى الصين والهند

وشواطئ إفريقية الشرقية والغربية . ولعل من أشهر الرحلات التجارية البحرية فى المحيط الهندى التى تمت خلال النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى هى رحلة التاجر سليمان السيرافى . ومن التجار الرحالة الذين كانت رحلاتهم أساساً للتجارة «ياقوت الحموى» الذى اكتسب كتابه (معجم البلدان) شهرة كبيرة .

يضيف الدكتور شوقى ضيف ما يمكن أن يسمى حب الاستطلاع، وهو ما يطلق عليه الدكتور حسين محمد فهيم التكليف أو الرحلة التكليفية. بمعنى أن يكلف الحاكم واحداً من كتابه بمهمة رسمية يجوب فيها الآفاق ويدون مشاهداتها ، وما وصل إليه . ويضربان مثلاً لذلك برحلة «سلام الترجمان» الذى أمره الخليفة الواثق «٢٢٧ هـ ٨٤١ م» بأن يذهب إلى حصون جبال القوقاز ، للبحث عن سدّ الصين الكبير ، الذى يقال إن الاسكندر بناه بين العالم القديم وديار يأجوج ومأجوج . وقد روى «ابن خرداذبة» أن الخليفة رأى فى منامه كأن السد الذى بناه ذو القرنين بينهم وبين يأجوج ومأجوج قد انفتح ، فطلب من يخرجه إلى الموقع فيستخبر خبره ، وقيل له إن خير من يصلح لهذا هو «سلام الترجمان» الذى يتكلم ثلاثين لساناً .

وإذا كانت هذه الدوافع قد تحددت من ناحية ، وحددت اتجاهات الرحلة فى القديم من ناحية أخرى ، فإنها فى العصر الحديث كثرت وتنوعت . هناك الرحلة للرحلة ، أى بدافع الرغبة – فقط – فى النقلة والتجوال . وهناك الرحلة بسبب العمل فى الخارج على غرار ما يقوم به الطلاب لفترة محدودة . وهناك الرحلة للإعارة مدة أطول . يعود المعار بعدها وقد سجل ودون كثيراً من الملاحظات والمشاهد التى رآها وكون

رأياً واقعياً فيها . وهناك الاشتغال بالسفارة والإقامة زمناً . وغير ذلك كثير من الأسباب التى ساعدت على ازدهار كتب الرحلة ، وتنوع اتجاهاتها ، واختلاف عوامها .

وهنا يلزم الإشارة إلى أنه إذا كان المستشرقون الروس يرجعون هذا اللون من الكتابة إلى القرن العاشر الميلادى ، فإن المكتبة العربية تؤكد أنه ظل ممتداً ومستمراً حتى عصرنا الحديث . بل حتى أيامنا هذه. لقد ازدهر فعلاً ، وشهد تطوراً فى الموضوع ، والرؤية ، والهدف منه ، واللغة التى يكتب بها ، والشكل الفنى الذى يقدم من خلاله . إذ إن الملاحظ أن عدداً كبيراً جداً من الكتاب المعاصرين ، يحرصون بين لحظة وأخرى ، على أن يدونوا رحلاتهم ومشاهداتهم ونقلاتهم هنا وهناك وهنالك . وذلك فى كتب مستقلة لها طابعها الخاص .

بل إنا نلاخظ أن بعض أدبائنا المعاصرين الذين عرفهم القارئ كتاباً للرواية أو للقصة القصيرة أو للمسرح أو للمقال ، قد حصلوا على جوائز الدولة ، لا بسبب إبداعهم فى هذه الفنون الأدبية وإنما لتفوقهم فى أدب الرحلات . نضرب لذلك مثلاً بالكاتب خيرى شلبى ، كاتب الرواية والقصة القصيرة الذى حصل على جائزة الدولة عن كتابه (فلاح مصرى فى بلاد الفرنجة) ، والكاتب عبد الفتاح رزق الذى شجعته الدولة ليبدع فى هذا الميدان حين منحته جائزة الدولة التشجيعية عن كتابه (رحلة إلى شمس المغرب) . أما أنيس منصور فإن له عدداً ملحوظاً فى كتب الرحلات ، حصل واحد منها (حول العالم فى ٢٠٠ يوم) على جائزة الدولة التشجيعية .

ليس من شك فى أن الذى ساعد كتابنا وأدباءنا المحدثين على الإقبال على الإبداع فى هذا اللون من الأدب والكتابة ، وعلى القيام أساساً برحلات متباينة ، وسائل الاتصال الحديثة ، والعلم والتكنولوجيا ، اللذان يسرا الانتقال إلى أقصى مكان فى الأرض ، بل بعيداً عن الأرض، حيث يوجد القمر . وهم يستعينون فى كتابتهم لرحلاتهم بالصور، والوثائق ، والمعلومات ، والتشويق ، والترغيب ، والمقارنة ، والخبرة ، والثقافة ، والرؤية .

وهى بالتأكيد كتابات تختلف كثيراً عن تلك الكتابات التى خلفها الرواد والأعلام ، مثل ابن خرداذبة ، واليعقوبى ، والبلخى ، وابن حوقل ، وياقوت الرومى ، والمسعودى ، والبيرونى ، وغيرهم !

إن الذى يقرأ كتابات الدكتور حسين فوزى التى تدور حول الرحلة مثل : « سندباد مصرى » ، « سندباد فى رحلة الحياة » ، « سندباد فى سيارة » و « سندباد عصرى » ، « سندباد إلى الغرب » ، « سندباد عصرى يعود إلى الهند » ، « حديث السندباد القديم » ، « سندباد فى طيارة ». أو يقرأ كتب محمود تيمور: « أبو الهول يطير » ، « شمس وليل»، « جزيرة الجيب » ، « الأيام المائة » . وكتابات أنيس منصور المتنوعة فى هذا الجانب : « حــول العالم فى ٢٠٠ يــوم » ، « اليمن ذلك المجــهول » ، « بلاد الله . خلق الله » ، « أطيب تحياتى من موسكو » ، « أعجب الرحلات فى التاريخ » ، « غريب فى بلاد غريبة » ، « لعنة الفراعنة » ، « أنت فى اليابان » .

وكذلك كتابات أحمد حسين : « من وحى الجنوب » . وأحمد محمد حسنين: « فى صحراء ليبيا » . وطاهر أبو فاشا : « وراء تمثال الحرية ».

وأمين الريحاني : « ملوك العرب » ، « المغرب الأقصى » ، « الريحانيات » . ومصطفى محمود : « مغامرة فى الصحراء » ، « الغابة » . وعبد الفتاح رزق : « مسافر على الموج » ، « رحلة إلى شمس المغرب » . وخيرى شلبى « فلاح مصرى فى بلاد الفرنجة » . وصبرى موسى : « فى الصحراء » . ومحمد كامل حتة : « فى ظلال الحرمين » . ومفيد فوزى « جواز سفر إنسان » . وفاروق خورشيد : « فى بلاد السندباد » . وحامد سليمان : « ١٠٠ يوم فى أحراش إفريقيا » . ومحمود السعدنى : « الموكوس فى بلاد الفلوس » ، « السعلوكى فى بلاد الافريكى » ، « بلاد تشيل وبلاد تحط » ، « رحلات ابن بطوطة » . وفتحى سعيد : « السفر على جواد الشعر » . وعبد الرحمن حمدى : « ذكريات دبلوماسى غير مدونة » . وحسين قدرى : « رحلة إلى جزر كناريا » ، « هروب إلى الفضاء » . وعبد السلام العجيلى : « حكايات من الرحلات » .

أقول ، إن الذى يقرأ هذه الكتابات الحديثة والمعاصرة التى جاءت بعد رفاعة الطهطاوى ، وخير الدين التونسى ، وأحمد فارس الشدياق ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم ، سوف يلاحظ تطور هذا اللون من الكتابة النثرية الأدبية ، وأن عدداً من الكتاب لا سبيل إلى حصره ، كان حريصاً على أن يضيف إلى إسهاماته الآخرى فى ميدان الأدب ، إسهاماً آخر فى أدب الرحلة .

وهذا هو الذى يدعو إلى ضرورة أن تتجه الدراسات النقدية إلى هذا الأدب ، لدراسته ، وتحليله ، وبيان فائدته ، ودوره ، وأهميته إن كانت له أهمية ، من حيث هو عمل أدبى فنى ، وليس من أية زاوية أخرى . وإلى

أى حد أفاد من فنون الأدب النثرية كالمقال والرواية والقصة القصيرة والشعر . إذ ليس يكفى أن نقف عند الحديث عن آدب الرحلة عند ابن بطوطة .

ذلك أنى لاحظت أن جمهور المثقفين بعامة ، والجمهرة العربية القارئة بخاصة ، لا يعرفون من الآدباء الذين كتبوا عن رحلاتهم إلا ابن بطوطة . لأن كثيراً من المؤرخين والباحثين والدارسين الذين التفتوا إلى هذا اللون من الكتابة ، لم يقفوا إلا عند رحلات ابن بطوطة . ومن ثم دارت مؤلفاتهم حولها . نشير فى ذلك على سبيل المثال إلى : « ابن بطوطة ورحلاته » للدكتور حسين مؤنس . و« ابن بطوطة ورحلته » لشاكر خصباك. « ورحلة ابن بطوطة » تقديم كرم البستانى . و«رحلة ابن بطوطة» محمد محمود الصياد . و«ابن بطوطة في العالم الاسلامى» ابراهيم أحمد العدوي . «الاوضاع السياسية للعالم الاسلامي من خلال رحلة ابن بطوطة» خليل ابراهيم السامرائي .

ولا يعنى هذا أنه لا توجد مؤلفات حول أدب الرحلات . هناك قائمة بعدد من الكتب التى تعد مراجع ينبغى الاطلاع عليها عند التصدي لدراسة هذا الموضوع . وقد أفدنا منها ؛ كما استندنا إلى غيرها ، بعد الاعتماد على الكتب الأصول ؛ وهى كتب الرحالة أنفسهم .

١ – تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب ...... أغناطيوس كراتشكوفسكي ترجمة صلاح الدين هاشم ١٩٦٥ .

٢ – الرحالة المسلمون في العصور الوسطى...... زكي محمد حسن ١٩٤٥ .

٣ – أدب الرحلات عند العرب في المشرق .... محمد الخضر حسين ١٩٧٦– بيروت .

٤ – الإسلامي والفكر الجغرافي العربي ...... صلاح الدين علي الشامي ١٩٧٩.

٥ – الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة ... نازك سابايارد ١٩٧٩ .

٦ – الرحلة والرحالة المسلمون ...... أحمد رمضان أحمد .

٧ – أعلام الجغرافيين العرب ......عبد الرحمن حميدة ١٩٨٤ .

٨ – التراث الجغرافي الإسلامي .... محمد محمود محمدين ١٩٨٤ .

٩ – أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي .... أحمد أبو سعد ١٩٦١ .

١٠– أدب الرحلة تاريخه وأعلامه ..... چورج غريب ١٩٦٦.

١١– أدب الرحلات عند العرب في الشرق . علي محسن مال الله ١٩٧٨ .بغداد

١٢– الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق .. ناجي نجيب ١٩٨٣ . بيروت.

١٣– الرحلات ....شوقي ضيف ١٩٥٦ . دار المعارف .

١٤– أدب الرحلة عند العرب ..... حسني محمود حسين ١٩٧٦.

١٥– أدب الرحلات ...... حسين محسن فهيم ١٩٨٩.

ويعتبر كتاب الدكتور شوقي ضيف (الرحلات) رغم صغر حجمه ؛ واحدا من المراجع المهمة ؛ إذ اعتمد عليه من درسوا هذا اللون من الكتابة بعده . حيث تناول الدوافع إلى الرحلات عند العرب ، وأشار إلى أبعادها واتجاهاتها ، ووقف عند بعض الكتب التي تشكل مجتمعة

اتجاهاً مميزاً . فعرض للرحلات الجغرافية ، والبحرية ، ورحلة ابن جبير ، ورحلة ابن بطوطة .

أما الدكتور حسنى محمود حسين ، فإنه درس آدب الرحلات منذ الفتح الاسلامى حتى العصر الحديث . وقد وقف عند القرن التاسع عشر على وجه التحديد . كما عرض لرحلة ابن جبير ، ورحلة ابن بطوطة ، وكتاب التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً ، ورحلة رفاعة الطهطاوى إلى باريس ، ورحلة أحمد فارس الشدياق إلى مالطة وبريطانيا وفرنسا .

وفى هذا الكتاب اقترب الدكتور حسنى محمود حسن من عالم كل رحالة . وحاول إعطاء صورة عامة عن الظروف التى أحاطت بالرحلة ، وبكاتبها ، وبالكتاب نفسه . ثم إنه عرض الرحلة عرضاً وافياً ، أفاد فيه بنصوص الرحلة ذاتها . وكان له اهتمام ملحوظ باللغة التى كتبت بها الرحلة . كما حرص على أن يبين إلى أى حد تختلف رحلة ابن جبير عن رحلة ابن بطوطة مثلاً . وكذا الرحلات التى قام بها أصحابها فى القرن التاسع عشر . بمعنى أنه فاضل بين رحلة وأخرى من حيث : الرواية ، والآسلوب والاقتراب من السيرة الذاتية . ومع ذلك فإنه أفاد كثيراً من كتاب (الرحلات) للدكتور شوقى ضيف .

ويركز الدكتور حسين محمد فهيم فى كتابه (أدب الرحلات) على صلة هذا الأدب بالإثنولوجيا ، أى الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ، ومجموعة التقاليد ، والعادات ، والقيم ، والأدوات ، والفنون ، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين ، خلال فترة زمنية محددة . ذلك أن موضوع الإثنولوجيا هو الوصف الدقيق والمترابط لثقافات المجتمعات

الإنســانية ، بالإضــافة إلى وصــف طبــائع البلــدان ، وخصــال أهلها وأسلوب حياتهم .

ونحن لن نتناول كل كتاب من الكتب التى أشرنا إليها ، وإنما وقوفنا عند الكتب الثلاثة الآخيرة جاء لأنها فى متناول القارئ ، وسوف يجدها جميعاً تتنفس فى مناخ واحد ، وقد أخذ بعضها عن بعض ، وأفاد أحدها من الآخر . مع ما انفرد به كل منها بإضافة هنا أو تفصيل هناك، أو توسعة للرقعة هنالك . وإن كنا نؤكد على ضرورة الرجوع إلى كل ما أثبتناه من مراجع ، وإلى المصادر الأساسية أولاً وقبل كل شئ .

وفى ضوء خطة هذا الكتاب يبقى علينا أن نتتبع مشوار كتب الرحلة فى تراثنا الآدبى العربى القديم والحديث . ولن يكون عملنا إحصاء لها ، ولا وقوفاً عند كل منها ، وإنما نحن نسعى لتأكيد فكرة التواصل ، والاستمرار ، والفاعلية الإيجابية ، التى يتسم بها تراثنا الآدبى العربى .

***

نبدأ المشوار مع كتب الرحلة بما كتبه أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنانيِ الأندلسيِ . فقد تأثر به ابن بطوطة والعبدرى ، وأخذ عنه أبو إســحق بن مهيب ، وابن الواعـظ ، وأبو تمــام بن إســماعيل ، وأبو الحـسـن بن نصــر بن فاتح البجــائى ، وأبو الحســن الشــارى ، وأبو سليمان بن حوط الله ، وأبو زكريا ، وعدد آخر يذكرهم أغناطيوس يوليا فى كتابه (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) والدكتور حسين نصار فى تقديمه لرحلة ابن جبير . إذ يجمع الباحثون والدارسون على أن كثيراً

من الرحالة ممن جاءوا بعد ابن جبير قد اقتدوا بما فعل واعتبروا رحلته من أعظم الرحلات فى تلك الفترة . واهتم بها المستشرقون من أمثال : وليم رايت William Wright ، ودوزى Dozy وروبرتسون سميث Robertson Smith . كما نقحها وساعد فى طبعها Do Goeje وحقق أمارى Amary الجزء الخاص بصقلية .

أما الشيخ الطنطاوى فإنه عمل على نشرها – بعد الترجمة – فى المجلة الآسيوية ، المجموعة الرابعة ، المجلد ٦ ، ٧ وعلق على ترجمة Amary . وفى عام ١٩٠٦ ترجمها إلى الإيطالية «كلتينو شيابرلى» . وفى مصر طبعت على النسخة الأوربية طبعة لم تحظ بعناية كافية بمطبعة السعادة ١٩٠٨ . ثم طبعت فى بغداد ونشرها نعمان الأعظمى فى مجلد ١٩٣٦ . ومرة أخرى طبعت سنة ١٩٥٥ فى مصر ، قام بتحقيقها الدكتور حسين نصار . وفى ١٩٦٨ نشرتها دار التحرير للطباعة والنشر .

ولصاحب هذه الرحلة ديوان شعر ، ومجموعة رسائل نثرية . وله جزء فى رثاء زوجته ، وجزء آخر فى شكوى الزمان والأصدقاء . لكنه لم يعرف ولم يشهر فى الدوائر العلمية إلا بعد رحلته التى ضمنت له مكانة مرموقة فى الأدب .

واختلف فى عنوان الكتاب . فجعله « حاجى خليفة » (رحلة الكنانى) نسبة إلى عائلة أو لقب ابن جبير . فهو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جُبير الكنانى الأندلسى . إذ ينتسب إلى أسرة عربية عريقة . دخل أسلافه الأندلس فى القرن الثامن مع القائد المشهور بلج بن بشربن عياض القشيرى . وأصل أسرته من بلدة شاطبة . وقد ولد ببلنسية

٥٤٠ هـ - ١١٤٥م . عنى أبوه بتربيته ، فدرس العلوم الدينية واللغوية . ولم يلبث أن تيقظت فيه مواهبه الأدبية .

وهناك من يرى أن عنوان الكتاب هو (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) ذلك أنه قص فيها ما شاهده فى طريقه إلى حجه وعودته منه ، وذلك فى شكل مذكرات يومية . ويبدو أنه كتبها فى أوراق منفصلة ولم يجمعها بنفسه ، بل جمعها بعض تلاميذه ، ثم نشرها بعد وفاته . ويبدأ المخطوط بعبارة (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) وينتهى بعبارة (كتاب اعتبار الناسك فى ذكر الآثار والمناسك) . لكن من نشروها فى العصر الحديث من المستشرقين والعرب آثروا أن يطلقوا عليها اسم (رحلة ابن جبير) .

كان الهدف من الرحلة دينياً ، ليحج بيت الله الحرام ، «للنية الحجازية المباركة» . وقد انعكس هذا على الأماكن التى اختلف إليها ، والشخصيات التى صاحبها ووصفها والتقى بها ، واللغة التى توسل بها ، والمعارف التى أحاط بها . عرف كثيراً من عادات وتقاليد تلك البلاد المقدسة ، حيث زار جدة ومكة والطائف والمدينة . وشغل بوصف تلك الآثار وصفاً دقيقاً . واستغرقه البيت الحرام والمسجد النبوى . وفى بغداد اهتم بالمساجد والآثار الإسلامية .

بالنسبة للشخصيات التى لفتت انتباهه واحتلت مساحة فى الرحلة . نجد أحمد بن حسان الذى رافقه فيها . والحجاج الذين اصطحبوه . وأئمة المساجد وقراؤها . والعلماء ورجال الدين فى كل بلدة زارها . والشيخ الإمام رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية الذى كان فقيه المدرسة النظامية ، وسيد علماء الخراسانيين فى بغداد . والواعظ

الخراسانى ذو اللسانين العربى والأعجمى . وابن عَون وهو شيخ كبير فقيه من أهل العلم . والشيخ بركات حيان بن عبد العزيز الصالح الزاهدى فى حران .

وليس من شك فى أن العلماء ورجال الدين احتلوا مرتبة عليا فى الرحلة . ثم يأتى بعدئذ حمالو اليمن والأعاجم وقبائل العرب من السودانيين . ويلعب كل منهم دوراً ما فى الرحلة . فدور الرفيق أحمد بن حسان وبعض الحجاج من المغاربة والأندلس يختلف عن دور من يلتقى بهم فترة قصيرة تنتهى عند مغادرته بلدة ما إلى أخرى . كذلك فإن للشخصيات اتجاهات معينة : منها ما هو سياسى كالسلطان صلاح الدين الأيوبى ، ومنها ما هو دينى علمى كالخطباء والمشايخ والمقرئين أمثال : الشيخ بركات حيان بن عبد العزيز الصالح الزاهد فى حران والقاضى الخطيب ، وغيرهم .

هذا العالم يستلزم لغة معينة وأسلوباً خاصاً . حيث نجده يكثر من الاستشهاد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية . عندما يتحدث عن أهل البيت يقول : (إنهم أهل بيت ارتضى الله لهم الآخرة ولم يرتض لهم الدنيا ، جعلنا الله مما يدين بحب أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً) إنه متأثر بقوله تعالى (إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) . كما يفسر كثرة خيرات مكة وما بها من سلع فى موسم الحج باستجابة الله لدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام ويستشهد على ذلك بقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) .

ويقول عن المكان الذى كان يقف فيه الرسول صلى الله عليه وسلم عند انشقاق القمر له (والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء حتى الجمادات من مخلوقاته) وورد فى حديثه عن ماء زمزم (وشربنا من ماء زمزم وهو لما شرب له كما قال صلى الله عليه وسلم) .

وإذا كان قارئ الرحلة لا يظفر بآراء صاحبها كثيراً حرصاً منه على الدقة والنقل الصادق الأمين والموضوعية ، فإنه فى المواقف والمسائل الدينية لا يخفى وجهة نظره التى يعلنها بوضوح . فهو عندما يتحدث عن فرق الشيعة ، لايفتأ يرد على بدعهم ويفند آراءهم وينتهى إلى وصفهم بأنهم « روافض سبابون والله من وراء حسابهم وجزائهم » . وكان له موقف صارم ممن شهدوا زورا برؤية الهلال ؛ طمعا في أن يكون العيد والوقوف في عرفة يوم جمعة ، يقول : (كأن الحج لا يرتبط إلا بهذا اليوم بعينه) ، وفي أيام حكم أمير مكة الظالم «مكثر بن عيسى» حكم على أهل الحجاز حكما قاسيا لما هم عليه من حل عرا الإسلام ، واستحلال أموال الحاج ودمائهم . . حتى ليبلغ به الأمر حد القول : (فمن يعتقد من فقهاء أهل الأندلس إسقاط هذه الفريضة عنهم ، فاعتقاده صحيح لهذا السبب ، وبما يصنع بالحاج مما لا يرتضيه الله عز وجل . فراكب هذا السبيل راكب خطر ، ومعتسف غرر ، والله قد أوجد الرخصة فيه على غير هذه الحال ، فكيف وبيت الله الآن بأيدي أقوام قد اتخذوه معيشة حرام ، وجعلوه سببا إلى استلاب الأموال واستحقاقها من غير حل ، ومصادرة الحجاج عليها ، وضرب الذلة والمسكنة الدنية عليهم ، تلافاها الله عن قريب بتطير يرفع هذه البدع المجحفة عن المسلمين بسيوف الموحدين أنصار الدين) .

واستنكر أن يشتكي الصنف الإسلامي من جور صنفه المالك له ؛ ويحسد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج ، ويأنس بعدله ؛ فإلى الله المشتكى من هذه الحال . إذ إنه رأى بعض المسلمين يلجأون إلى الإفرنج أيام حكم الصليبيين ، ويعيشون حياتهم ؛ وربما يعملون لحساب العدو الصليبي ضد أخيهم المسلم .

ويعلن رفضه الحاد لبعض الفرق من السودانيين الذين كانوا يعترضون طريق الحجاج ، ويعتدون عليهم ، فهم في نظره (أضل من الأنعام سبيلا ، أقل عقولا ، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التى يظهرون بها إسلامهم . ورجالهم ونساؤهم لا يلبسون إلا خرقا يسترون بها عوراتهم ، وأكثرهم لا يسترون ، فهم أمة لا أخلاق لهم).

ومما هو جدير بالذكر في هذه المناسبة أن ابن جبير كان يحضر مجلس شراب حاكم غرناطة «أبو عثمان سعيد بن عبد المؤمن » وكان ينقبض عن الشرب ، فألح عليه الحاكم أن يشرب معه ، وأقسم عليه ليشربن سبعا ، وجاراه ، فشرب سبع كئوس . وسر الأمير ، وملأ له الكأس بالدنانير سبع مرات ، وصبها في حجره فأصر فى نفسه أن يكفر عن سيئته ، وأن ينفق هذه الدنانير فى الحج إلى بيت الله ، وقد تحقق له ذلك ، فكانت رحلته الشاملة . ثم أتبعها برحلتين أخريين : الأولى في ٥٨٥ / ١١٨٩م والثانية في ٦١٤ /١٢١٧م . لكن رحلته الأولى حظيت بالاهتمام الأكبر . وزمنها كان في أيام احتلال الصليبيين لبلاد الشام ، أيام كان السلطان صلاح الدين في مصر يعد ويعمل على صدهم وطردهم من هذه البلاد .

وللرحلة أبعاد موضوعية جغرافيه ، واقتصادية واجتماعية وثقافية .

استغرقت رحلة ابن جبير سنتين وثلاثة أشهر ونصف الشهر . بـدأت مع أول ساعة مـن يـوم الاثنين الموافق الثامن من شوال سنة ٥٧٨ .هـ/٣ فبراير ١١٨٣ .م ، وانتهت فى الخامس عشر من المحرم سنة ٥٨١ .هـ/ ٢٥ من ابريل سنة ١١٨٥م . فى هذه الفترة انتقل من مكان إلى مكان ، يطوف أرجاء البلاد يصف ويسرد ويذكر آثار البلاد التي يمر بها ، والأماكن التي يجوبها . ركب البحر في سفينة لبعض أهل جنوة قاصدا الإسكندرية . ونزل بها . وولى وجهه إلى القاهرة ومنها إلى قوص بصعيد مصر ، فعيذاب حيث اجتاز البحر إلى جدة . واتجه من فوره إلى مكة ، فأدى فريضة الحج ، وزار المدينة وظل في هذه البلاد المقدسة نحو ستة أشهر . ثم قصد إلى الكوفة ، فبغداد ، فالموصل . وكان يمكث بعض الوقت يدرس ويفحص . وانتقل إلى الشام ، وكان للصليبيين فيها مستعمرات كثيرة ، فجاس خلال ديارهم . وأخيرا ركب البحر من عكا عائدا إلى بلاده ، وألمت المركب بصقلية ، فنزل فيها وطاف ببلادها ، ثم رحل إلى بلاده .

وانطلاقا من الغاية التي سعى ابن جبير لتحقيقها ؛ فإن لنا أن نتوقع ما يمكن أن يصدر عن عالم فقيه يولي المساجد وقبور الصحابة والأولياء جل عنايته واهتمامه . إذ نراه في كل بلد يحل فيه يشغل نفسه كثيرا في إحصاء مساجده ، ووصف المشهور منها ، وفي زيارة قبور الصحابة والصالحين وإطالة الحديث عنها .

يتحدث عن مشهد «الحسين» بالقاهرة قائلا : (أول مانبدأ بذكره .. المشهد العظيم الشأن الذي بمدينة القاهرة ، حيث رأس الحسين بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهما ، وهو في تابوت فضة مدفون تحت الأرض ، قد بني عليه بنيان حفيل ، يقصر الوصف عنه ، ولا يحيط

الإدراك به ، مجلل بأنواع الديباج ، محفوف بأمثال العمد الكبار شمعا أبيض ، ومنه ماهو دون ذلك ، قد وضع أكثرها في أتوار (آنية) فضة خالصة ، ومنها مذهبة ، وعلقت عليه قناديل فضة ، وحف أعلاه كله بأمثال النفافيح (الكرات) ذهبا ، في مصنع شبيه الروضة ، يقيد الأبصار حسنا وجمالا ، فيه من أنواع الرخام المجزع ، الغريب الصنعة البديع الترصيع، مالا يتخيله المتخيلون ، ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون)

ويطيل المكث في مكة ؛ إذ يظل فيها ثمانية أشهر وثلثا من ٣ ربيع الآخر سنة ٨٧٩ إلى الخميس ٢٢ ذي الحجة من نفس السنة . ومن ثم كان وصف الأماكن المقدسة ومشاعر الحج . فيصف الكعبة والمسجد الحرام وصفا دقيقا مفصلا . ومما يقول فيه : (البيت المكرم له أربعة أركان ، وهو قريب من التربيع . وارتفاعه في الهواء من الصفح(الجانب) الذي يقابل باب الصفا وهو من الحجر الأسود إلى الركن اليماني تسع وعشرون ذراعا ، وسائر الجوانب ثمان وعشرون ... وأول أركانه الذي فيه الحجر الأسود ، ومنه ابتداء الطواف . وأول مانلقى بعده الركن العراقي ، وهو ناظر إلى جهة الشمال ، ثم الركن الشامى ، وهو ناظر إلى جهة الغرب ، ثم الركن اليماني ، وهو ناظر إلى جهة الجنوب ثم نعود إلى الركن الأسود ، وهو ناظر إلى جهة الشرق . وعند ذلك نتم شوطا واحدا . وباب البيت الكريم في الصفح الذي بين الركن العراقي وركن الحجر الأسود . والباب الكريم مرتفع عن الأرض بأحد عشر شبرا ونصف ، وهومن فضة مذهبة ، بديع الصنعة ، رائق الصفة ، يستوقف الأبصار حسنا وخشوعا، للمهابة التي كساها الله بيته).

وهكذا لا يكاد يجد شيئا ويتركه دون وصفه وصفا دقيقا . ثم يصف مكة وآثارها وجبالها ومشاهدها وأبوابها ومطاعمها وحماماتها واحتفال الناس فيها بليلة نصف شعبان وبرمضان ويوم العيد ، ويفيض في وصف مناسك الحج وصف المشاهد اليقظ الذي لا تفوته صغيرة ولا كبيرة . ثم يرسم لنا الطريق إلى الكوفة رسما بارعا . وينتقل إلى رسم المدن العراقية حتى يصل إلى بغداد ، التي أفرد لها فصلا طويلا . ولم يفته وصف مجالس العلم المختلفة وبخاصة للعالم الكبير رضي الدين القزويني رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية . بعدها ؛ يأخذ في وصف جامع دمشق ، ويتحدث عن أبوابه وحيطانه وماعليها من نقوش وتصاوير ، كما يتحدث عن مقاصيره وعمده وقبابه ومحاريبه وشمسياته ومابه من بديع البناء وغرائب الحلي . ويقف عند أبواب دمشق وأسواقها ومدارسها .

كما يعجب بجامع حلب ويصفه وصفا معماريا . يقول : (وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها ، قد طاف بصحنه الواسع بلاط متسع ، مفتح كله أبوابا قصرية الحسن ، إلى الصحن ، عددها ينيف على الخمسين بابا ، فيستوقف الأبصار حسن منظرها . وفي صحنه بئران معينان . والبلاط القبلي لا مقصورة فيه ، فجاء ظاهر الاتساع رائع الانشراح وقد استغرقت الصنعة القرنصية جهدها في منبره ، فما أرى في بلد من البلاد منبرا على شكله وغرابة صنعته . واتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب ، فتجللت صفحاته كلها حسنا ،.على تلك الصنعة الغريبة . وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتصل بسمك السقف وقد قوس أعلاه وشرف بالشرف الخشبية القرنصية ، وهو مرصع كله بالعاج والأبنوس . فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا . وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف)

وهو لا يكتفي بوصف المساجد والآثار والأماكن المقدسة ؛ ولكنه يصف المدن من ثلاث نواح : المرافق ، والمشاهد ، والأرباض . وتضم المرافق عنده : الأسوار والحصون ، والمساجد ، والمدارس ، والحمامات ، والمياه ، والأسواق ، والمستشفيات ، والمنازل ، والشوارع ، والأبواب . وتضم المشاهد : المقابر ، والموالد ، وآثار الأنبياء ، والعلماء والأولياء ، والمواقع الإسلامية ، والمعابد والكنائس والآثار غير الإسلامية . أما الأرباض فإنها تضم الأحياء والضواحي .

ويذهب الدكتور عثمان موافي إلى أن هذا الرحالة قد نقل لنا صورا صادقة عن المدن والمجتمعات الإسلامية في المشرق العربي ، وعن عادات السكان ، وتقاليدهم ، ونظمهم الاجتماعية ، وذلك في القرن السادس الهجرى ، وفي فترة من أدق وأحرج الفترات ، التى مر بها المشرق العربي الإسلامي . وهي فترة الجهاد المقدس ضد الصليبيين بقيادة صلاح الدين الآيوبي .

ولم ينس ابن جبير وصف التضاريس والمناخ وتحديد المسافة بين البلدان والآثار المهمة.

وأعرب عن رأيه فى صلاح الدين الأيوبى ، وأشاد بأعماله وآثاره فى الشام وانتصاراته على الصليبيين ، واهتمامه بالمغاربة ؛ إذ يجرى عليهم الأرزاق ويخصهم بعطفه وحدبه. وقد أشار مادحاً بناءه المدارس، واهتمامه بما بها من ضروب التعليم ، وعنايته بحفظ القرآن . وأشاد بإلغائه الضريبة التى كانت تؤخذ فى القاهرة من حجاج المغرب ؛ وإلغائها كذلك من بلاد الحجاز بفضل ما أفاء على هذا القطر من ماله.

وللرحلة بعد اقتصادي يتمثل فيما ذكره ابن جبير عن نشاط السكان ، والمستوى المادي الذي كانوا عليه فى تلك الفترة. فى معرض حديثه عن بحر عيذاب يقول إن السكان كانوا يعملون فى الغوص بحثا عن اللؤلؤ ، وسيلتهم فى ذلك الزوارق . بينما يتمثل نشاط السكان فى مكة فى التجارة التى يديرها تجار اليمن . وهناك من يشتغلون بالرعي. ولما كانت مكة – إبان زيارته إياها – ملتقى الحجاج والتجار فإنها كانت ملتقى الصادر والواردممن بلغته الدعوة المباركة . والثمرات تجئ إليها من كل مكان . فهى اكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر . ويقارن بينها وبين ما كانت عليه الأندلس . وربط الانتعاش الاقتصادى ووجود الخيرات الكثيرة فى مكة بالتجارة وما يرد إليها من أماكن قريبة كالطائف؛ أو من بقاع بعيدة كاليمن والشام.

ويتحدث ابن جبير عن الحياة الرغدة التى كان يعيشها أهل مكة فى سنة زيارته لها. على عكس ما كان عليه الحال فيما قبل ، حين ساد عدم الاستقرار ، مما قلل من الوافدين إليها للحج أو التجارة ، فندرت البضائع واشتد الغلاء وعم الكساد . أما فى هذا العام فقد وفدت عمالة كثيرة إلى مكة وغيرها من البلاد الحجازية ؛ نظراً لكثرة الزرع والمأكل والمشرب . كما جلب إليها من المغاربة ذوي البصارة بالفلاحة والزراعة ؛ فأحدثوا فيها بساتين ومزارع ؛ ساعد فى خصب هذه الجهات ؛ وذلك بفضل الله عز وجل ، وكريم اعتنائه بحرمه الكريم وبلده الأمين. لقد اختص الله تعالى هذه البلدة المكرمة بالخير ومنحها البركة. ولحوم مكة ذات بركة ومذاق لذيذ ؛ وهو راجع إلى بركة مراعيها . وهنا تتاح الفرصة لابن جبير كي يتحدث عن المراعى.

ولا يقل اهتمامه بالبعد الاجتماعى عن ولعه بالجوانب الأخري ؛ حتى إن الدكتور حسنى محمود حسين يرى أنه «فى هذا المجال تتجلى قدرته على الملاحظة وملكته فى النقد والحكم». إنه يتحدث عن طباع الناس ، ويصورأخلاقهم وعاداتهم ، ومظاهر احتفالهم فى المناسبات الدينية ، وفى حفلات الزواج . فالمسلمون فى مكة يحتفلون بأهّلة الشهور المباركة ، كما كانوا يحتفلون فى رجب وشعبان ورمضان . ثم يشير إلى تمسكهم بالسحور وهو سنة ، ويذكر وسيلة إيقاظ الناس آنذاك، عن طريق مؤذن ، ومعه أخوان صغيران فى صومعة بالمسجد ، قريبة من دار الأمير؛ وإضاءة قنديلين أعلى الصومعة يهتدى بهما من لم يسمع .

وعن أهل دمشق يروى أنهم يتبركون بالحجاج لدرجة أن النساء كن يقدمن لهم الخبز . فإذا ما قضمه الحاج اختطفنه وأكلنه تبركاً بأكل الحاج. وما أكثر ماكن يصافحنهم ويتمسحن بهم. كما أن أهل دمشق يقفون يوم عرفات إثر صلاة العصر فى الجوامع كاشفى رءوسهم، داعين ربهم التماساً لبركة هذه الساعة ؛ إلى أن يسقط قرص الشمس ، فينصرفون باكين على ما حرموه من ذلك الموقف العظيم.

وفى عيذاب التى قضى بها ثلاثة وعشرين يوماً وصفها بأنها محتسبة عند الله ، لشظف العيش ، وسوء الحال ، واختلال الصحة لعدم توفر الغذاء ؛ نجده يصفها بقوله : (حسبك من بلدٍ كل شئٍ فيه مجلوب حتى الماء ، والعطش أشهى إلى النفس منه ، فأقمنا بين هواءٍ يذيب الأجسام ، وماءٍ يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام ، فما ظلم من غني عن هذه البلدة بقوله : «ماء زعاق وجو كله لهب». وبالإضافة إلى هذه الحياة

فيها ، فأهلها ألفوا بها عيش البهائم ، وهم أقرب إلي الوحش منهم إلى الأنس.) وتبلور موقفه من أهل هذه البلدة «عيذاب» فى أنهم أضل سبيلاً من الأنعام . ودعا إلي مقاطعتهم بتغيير طريق الحجاج عنهم ما أمكن.

على العكس من ذلك يأتى موقفه من أهل نجد (وهم من شظف العيش بحالٍ يتصدع له الجماد إشفاقاً يستخدمون أنفسهم فى كل مهنة من المهن : من إكراء جمال إن كانت لهم ، أو مبيع لبن أو ماء، إلى غير ذلك من تمر يلتقطونه ، أو حطب يحتطبونه. وربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن فسبحان المقدر لما يشاء . ولا شك أنهم أهل بيت ارتضى لهم الآخرة ولم يرتض لهم الدنيا . جعلنا الله ممن يدين بحب أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً).

أيا ماكان الأمر فقد كان ابن جبير اجتماعياً يهتم بأحوال الناس ، وما يرتبط بحياتهم اليومية كالمدارس والمستشفيات ، وما إلى ذلك من عاداتهم وتقاليدهم . ولم يلجأ للحكام فى أي بلد زاره . وإنما قام برحلته كأى مواطن عادى ، رغم أنه كان من رجال الديوان فى غرناطة إلا أنه فى رحلته لم يعط أهمية للحكام بأى شكل من الأشكال . وإن كان قد ذكر سلطان مصر ، وحاكم القاهرة ، وأمير مكة ، وحاكم دمشق ، وحاكم صقلية. وكانت إشارته إليهم مجرد إشارة لأسمائهم فقط . وإن كان هذا لا يعنى أنه توقف طويلاً عند السلطان صلاح الدين الأيوبى ، لدوره الإسلامى التحريرى.

لقد خرج ابن جبير إلى الرحلة وهو لا يريد أن يعامل معاملة خاصة. بل رغب فى أن يعامل معاملة عامة الناس فى البلاد التى يزورها؛

حتى يسم رحلته بالواقعية. ربما لو لجأ للحكام لاكتفى بهم ولتغيرت نظرته والتقى بهم وحدهم. وربما ابتعد عن العادات والتقاليد والقيم الشعبية. ولو فعل ذلك ما انتقد سوء معاملة موظفى الميناء له ولرفاقه من الحجاج. وما شكا من تحصيل المال دون تفرقة بين ما حال عليه الحول وما لم يحل ، كذلك لما رفض الأسلوب البوليسى المتمثل فى سؤاله هو ورفيقه «أحمد بن حسان» عند الطواف من قبل طائفة من الموظفين الذين حاولوا معه الاستفسار عن كل المغاربة.

وابتعاده عن الحكام أيضاً جعله يقسو على أهل مكة الذين يعتبرون الحجاج من أعظم غلاتهم التى يستغلونها ؛ وعلى هذا النحو كان ذمه العنيف لمعاملات أهل بغداد وقسوته عليهم ؛ اللهم إلاَّ فقهاءهم المحدثين ، ووعاظهم المذكرين . إنه يستثنى رجال الدين حباً فى الدين وفى مجالسهم التى شغف بها ، (لو لم نركب البحر ونعتسف مفازات القفر إلاَّ لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل – رئيس الحنبلية فى بغداد – لكانت الصفقة الرابحة ، وما كنا نحسب أن متكلماً يعطى فى الدنيا من ملكة النفوس والتلاعب بها ما أعطى هذا الرجل).

ولعلنا نلاحظ أن الرحلة تخلو من دور المرأة. إذ إنها خلت من عنصر المرأة. ولم يذكرها ابن جبير إلا مرات معدودات. مرة فى مصر؛ وفى قنا علي وجه التحديد ؛ حيث ذكرها محتشمة لا تخرج من دارها . وأخرى ذكرها في مكة عندما قام بالحج ؛ حيث يخلى الحرم من الرجال ويخصص للنساء فقط ، وكان ذلك في يوم ٢٩ رجب الذي أفرد للنساء فقط. بل إنه يوم النساء فى كل عام .

ويبقى أن نذكر أن الرحلة حافلة بالمادة التاريخية . فقد سلطت الأضواء على شخصية صلاح الدين الأيوبى ، وعبقريته في القيادة ، وصورت الحروب التى قامت بين المسلمين والصليبيين. كما أشارت إلى موقف الأمراء من الخليفة العباسى ، ومن صلاح الدين الأيوبي . ونجد لابن جبير ملاحظات دقيقة حول أحوال الخلافة العباسية في أواخر القرن السادس. ومن ملاحظاته فى بغداد أن جميع المسلمين كانوا فى الواقع معتقلين فى دورهم اعتقالاً جميلاً. فهم لا يخرجون ولا يظهرون. وأنه لم يكن للخليفة وزير فى ذلك العصر؛ إنما كان له خديم يعرف بنائب الوزارة، ومن الأحباش فتى أسمه «خالص» وهو قائد العسكرية. ووقف طويلاً عند علاقة الملك «غليام» فى صقلية بالمسلمين.

عالج ابن جبير ذلك كله بلغة سهلة بسيطة يستطيع القارئ العادى فهمها. وإن كانت هناك كلمات غير مألوفة جعلت محقق الرحلة يشير إلى معناها فى الهوامش. وإذا كان الأدب قد أثر فى أسلوب ابن جبير فمنحه قوة التصوير؛ فإنا نلاحظ أن العبارة عنده تفتقد الترابط؛ حيث ينقصها أدوات الربط؛ مما دفع المحقق إلى وضع بعض حروف العطف للربط بين الجمل والعبارات. كما أننا نلاحظ أن أسلوبه يختلف باختلاف البلدان. إذ إنه عندما يذكر المعاملة السيئة التى لقيها من موظفى ميناء الإسكندرية، يستخدم أسلوباً خبرياً بحتاً يخلو من الصور الجمالية والمحسنات البديعية. وفى لحظة وصوله للأراضى الحجازية - وقد ارتاح ضميره ووصل الحرم المكى - نجد أسلوباً جميلاً.

يضاف إلى ما سبق أنه وهو بصدد حديثه عن مكة يغلب على أسلوبه الجانب الدينى. بينما وهو إزاء وصفه لبغداد يكثر من ذكره

لمجالس العلم والعلماء. وقد جاورت العامية اللغة العربية الفصحى فى مواضع كثيرة، مما يدل على وجودها وسيادتها. ولم يمنعه هذا من الاستشهاد بالشعر والقرآن الكريم والأحاديث النبوية. وأعانته لغته الأدبية على وصف المدن، والآثار، وصفاً دقيقاً، وبخاصة المساجد والأماكن المقدسة، ودور العلم.

وبعد أن شرّق طويلاً، انتهت رحلته المكانية التى استخدم فيها البحر والبر، نهاية حتمية، حيث حقق الغرض الرئيسى من رحلته؛ ووصل منزله فى الخامس والعشرين من ابريل سنة ١١٨٥م؛ ليسجل رحلته فى شكل مذكرات يومية. فى أوراق منفصلة، مع كل مشهد وكل بلدة التاريخ باليوم والشهر. وكان فى تدوينه مهتماً بالتاريخ الميلادى والتاريخ الهجرى، وبخاصة عند كل مدينة ينزل بها. حيث كان يذكر تاريخ النزول ميلادياً وهجرياً، إلى جانب ذكر تاريخ القيام من المدينة، وتاريخ بعض الأحداث المهمة. وهو لم يترك شهراً طوال رحلته إلا ودونه وجعل له عنواناً منفرداً يحمل فى داخله مجموعة من المذكرات. وكان يضع لبعض الأحداث والمدن المهمة عناوين منفردة لذكر وبيان أهميتها : «ذكر المسجد الحرام»، و«البيت العتيق» كرمه الله وشرفه.

وهكذا كانت رحلة ابن جبير لبنة أولى، أو خطوة أولى، فى هذا المشوار الطويل الذى أخذ أدب الرحلات يقطعه. فقد لفت الأنظار إلى أهمية تدوين ما يشاهده الكتاب فى رحلاتهم، وإلى شكل معين يجئ فيه هذا التدوين، وإلى أمور حتمية ينبغى الإشارة إليها فى أثناء كتابة الرحلة.

وإذا كان ابن جبير لم يلتفت إليه دارسو التاريخ والجغرافيا والاجتماع والاقتصاد؛ فحسبه أنهم وقفوا عند واحد ممن تأثروا به وهو «ابن بطوطه».

***

إن من يقرأ رحلة « **ابن بطوطة** » سوف يلاحظ أن بها بعض النصوص التى سبق ورودها فى رحلة ابن جبير، وبخاصة فيما يتعلق بوصف المدن. وقد كان أغلبه من صنيع ابن جزي الذى قام بكتابة الرحلة، إذ يبدو أن ابن بطوطة كان لا يملك أسلوباً طيعاً فى الترسل، مما دفع السلطان إلى أن يكلف وزيراً من وزرائه من أهل الأدب والاهتمام بأدب الرحلات وهو «أبو عبد الله بن جزي»؛ وكلفه أن يعيد صوغ ما يكتبه ابن بطوطة من حديث رحلته؛ فجعل ابن بطوطة يكتب وابن جزي ينقح ويصوغ. ثم عاد ابن جزي على ما كتبه فنقحه، وربط بين أجزائه، وأضاف إليه بعض مالديه من حديث عن البلاد، وخاصة بلاد الحجاز والأراضى المقدسة والشام.

من ذلك مثلاً أن ابن جزى لم يرض عن حديث ابن بطوطة عن الحجاز ومكة المكرمة والمدينة المنورة وموسم الحج. فرفعه ووضع مكانه صفحات من رحلة أبى الحسين أحمد بن جبير الأندلسى الغرناطى الذى قام برحلته قبل ابن بطوطة بقرن كامل. ومع أن ابن جبير عاش فى القرن السابع الهجرى- الثالث عشر الميلادى؛ فإن ابن جزى أجاز لنفسه هذا العمل؛ وكاد يفسد الكثير من صفحات رحلة ابن بطوطة بتدخلاته تلك التى تحمل أسلوب فقيه متأدب يريد أن يعرض للناس شيئاً من علمه. ولكن

لحسن الحظ لم يضف شيئاً أو يعدل شيئاً إلا قرر ذلك صراحة بقوله : (قال ابن جزى)، ومعنى ذلك أن رحلة ابن جبير فى مجموعها أصيلة وسليمة إلى حد كبير.

وثمة من يقول إن ابن بطوطة لم يُمْلِ حديث الرحلة على ابن جزى كما يظن؛ بل قام بتقييد رحلته بنفسه، ثم تولى ابن جزى اختصار هذا التقييد، ووضعه فى أسلوب جيد؛ لأن ابن بطوطة ربما أطال فى ذكر التفاصيل؛ فكان لابد من اختصار كلامه، والغالب أيضاً أنه لم يكن صاحب أسلوب حسن، فاحتاج الأمر إلىٍ من يصوغ الرحلة فى أسلوب أدبى، وهذا هو الذى فعله ابن جزى، وهو عمل ليس باليسير، وكان يقوم بالعمل أولاً فأولاً، وهذا يفسر لنا قصر المهلة بين فراغ ابن بطوطة من التقييد وفراغ عبد الله بن جزى من التحرير.

وكان ابن بطوطة يورد الكلام على لسانه ثم يقول لا أجد وصفاً خيراً من وصف ابن جبير لها، بل إنه ينقل وصف ابن جبير، كما يفعل ذلك فى وصف مدينة حلب الكبرى، ومدينة دمشق التى لا يرى أبدع مما قاله أبو الحسن ابن جبير فى وصفها، ثم يورد ما قاله ابن جبير فى رحلته، كذلك يفعل فى وصف مدينة بغداد.

ومع ذلك فإن اسم ابن بطوطة ذاع وانتشر؛ وشهرت رحلته وعرفت على المستويات العلمية والشعبية، وكأن الأدب العربى لم يعرف غيرها على الإطلاق، بل إن أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الشهير بابن بطوطة، لقب أعظم الرحالة المسلمين على الإطلاق، واهتم كثير من الباحثين العرب والغربيين على حد سواء بالرحلة إلى حد

كبير جداً. ولقد ترجمت الرحلة إلى عدة لغات. ومن بين الأعمال المهمة التى تناولت الرحلة بالتحقيق دراسة المستشرقين الفرنسيين «ديفر يمرى وسانغتينى» فى أواخر القرن التاسع عشر، وكذلك دراسة المستشرق الفرنسى «بلاتش ترابييه». لقد صدر كتابه عن الرحلة بعنوان (الرحالة العرب فى العصر الوسيط)، وذلك فى سلسلة كشف العالم. وقد خرج هذا الكتاب فى عدة طبعات فى الثلاثينيات من هذا القرن. أما عن الأعمال العربية فإنها جاءت فى مرحلة تاريخية لاحقة لأعمال المستشرقين. وقد ذكرناها فى مقدمة هذا القسم.

وقد طبعت الرحلة فى القاهرة طبعتين عن الطبعة الپاريسية، فى مجلدين سنة ١٨٧١ - ١٨٧٥، والثانية ١٩٠٤. أما عن الطبعات الموجودة بدار الكتب المصرية فإنها : طبعة پاريس ١٨٥٨ فى أربعة مجلدات. وطبعة الإمبراطورية ١٨٧٩ فى خمسة مجلدات. وطبعة المطبعة الأميرية ١٨٧٩ فى أربعة مجلدات. ويوجد مخطوط ٤٦ ورقة من أولها إلى إقليم السودان ١١٠٢هـ -- طبعة مطبعة وادى النيل ١٢٨٧ هـ جزءان فى مجلد. وطبعة الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٠. والمكتبة التجارية ١٩٦٤ جزءان فى مجلد واحد. وطبعتها دار التحرير للطبع ١٩٦٦ (١١ جزء مجموعة فى مجلدواحد).

ومع ذلك فإن هذه الرحلة لم تلق ما هي أهله من الدرس والعناية والاهتمام. ولم يحظ ابن بطوطة فى التاريخ المعتمد للحضارة العالمية بنفس المقام الذي حظي به ماركو بولو. كما أنه لم تصدر خريطة واحدة شاملة لرحلته كمئات الخرائط التى رسـمت لرحلة مارك بولو. اللهم إلا

الخريطة اليتيمة التي وضعها الدكتورحسين مؤنس فى كتابه (ابن بطوطة ورحلاته : تحقيق ودراسة وتحليل) ١٩٨٠. فقد تعاصر ماركو بولو وابن بطوطة بعض الوقت. إذ إن ماركو بولو عاش فيما بين ١٢٥٤ و ١٣٢٤ وعاش ابن بطوطة فيما بين ١٣٠٤ و ١٣٧٨. وقد بدأ ابن بطوطة رحلته فى ١٤ من يونيو ١٣٢٥ أى بعد موت ماركو بولو بسنة ونصف السنة تقريباً، فقد توفى هذا فى البندقية فى الثامن من يناير ١٣٢٤. وفى رحلتيهما زارا المواضع نفسها، وسلكا فى كثير من الأحيان الطريق نفسه؛ كما هى الحال فى رحلة الاثنين فى الصين والعودة من هناك إلى الغرب.

وإذا كان ماركو بولو قد كذب كثيراً فإنهم يعتبرون كتاب رحلاته واحداً من أعظم الكتب على مر العصور. وتوالت طبعاته والدراسات حوله حتى أصبحت هناك مكتبة تسمى مكتبة ماركو بولو. وأفادت أوربا من كتاب رحلاته فوائد أكبر فيما يتعلق بعلاقاتها مع المغول أو مع الصين أو مع آسيا. وعلى أساسه رسمت سياسات وخطط. لكننا لم نفد من كتاب رحلات ابن بطوطة على النحو الذى رأيناه يحدث مع ماركو بولو، مع التسليم بصدق الرجل وأمانته.

يقول الدكتور حســين مؤنـس : (وابن بطوطة- بعد ذلك كله- صادق الحديث فى جملته : فهو لا يبالغ ولا يكذب، ولا يحاول أن يعطى نفسه أكثر من قدره، بل هو يحكى أحياناً حكايات تشينه بعض الشيء : مثل حكاية رفض ابنة الوزير فى مالاديبف الزواج منه، وحكايته مع سلطان مالى عندما أراد أن يسترعى نظره إلى أهميته، فقال له السلطان:

ما رأيتك وما سمعت بوجودك ! وهذا الصدق من أكبر مميزات هذا الرجل، وقد أثبتت الأبحاث والدراسات أن الرجل صادق في معظم ما قال، حتى فى الحالات التى زعم فيها أنه ذهب إلى مكان ما لاستكمال الحديث وروى ما سمعه عنه دون أن يراه. وهى حالات قليلة جداً... ثم إن الرجل مرتب ومنهجى، وحديثه عن كل قطر يدخله يسير على منهج : فهو يذكر البلد ويصفه ويعين حدوده ويذكر ما شاهده فيه، ويرى ما عرفه من عادات أهله ونظام حياتهم ومأكلهم ومشربهم وملبسهم، ثم يتحدث عن سلطان البلد وكيف رآه ؟ وماذا جرى بينه وبينه ؟ وقد يعقب ذلك بشئ من التاريخ) ٢٤٠

وينتهى الدكتور حسين مؤنس إلى القول بأنه (أمام عمل علمى من الطراز الأول، كتبه رجل عالم ومكتشف لا يقل عن عظماء المكتشفين فى التاريخ، ولو وعى معاصروه ومن جاء بعدهم قدره لكان لهذا الكتاب شأن عظيم فى تقدم هذه الأمة. كما كان الحال مع ماركو بولو فى تاريخ العلم الأوربى) ٢٤١

مهما يكن من شئ فقد كان ابن بطوطة رجلاً يحب الحياة فى شتى صورها : فى الرحلة والمشاهدة . فى رؤية الأولياء الصالحين والفوز ببركاتهم. فى الاستمتاع بصحبة العلماء والفقهاء. فى مخالطة طلاب العلم والحياة معهم فى الزوايا والتكايا والمدارس. فى الحج إلى بيت الله الحرام والمجاورة مع العباد الصالحين.

فى السفر والنقلة والترحال. فى التماس الطرائف والبحث عن الغرائب وعشق العجائب.

كان دافعه الأول إلى هذا كله الحج إلى بيت الله الحرام؛ يقول فى مطلع رحلته : (وكان خروجى من طنجة مسقط رأسى فى يوم الخميس

الثانى من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمداً حج بيت الله وزيارة قبر الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام، منفرداً عن رفيق آنس بصحبته، وركب أكون فى جملته لباعث على النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن فى الحيازم، فحزمت أمرى على هجر الأحباب من الإناث والذكور ، وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور ، وكان والداى بقيد الحياة ، فتحملت لبعدهما وَصَبَاً ، ولقيت كما لقيا من الفراق نصباً ، وسنى يومئذ ثنتان وعشرون سنة) .

لقد أقدم ابن بطوطة على رحلته فى الفترة التى قلت فيها رحلات عرب المشرق ، وكثرت فيها رحلات المغاربة الذين اتجهوا صوب الشرق لأداء فريضة الحج ، وزيارة المدن الاسلامية الشهيرة مثل بغداد ، ودمشق، والقاهرة ، داخل نطاق عالم الاسلام واسع الرجاء ، والممتد من المغرب العربى والأندلس إلى أقصى الشرق فى الهند وحتى الصين . حيث كانت الرحلة خارج هذا النطاق محدودة وغير واردة على نطاق واسع فى أذهان الأفراد أو الحكام. ساعد على ذلك الاتصال البرى السهل الذى يُيَسر الانتقال فى ربوع البلاد شرقاً وغرباً . يضاف إلى ذلك توفير الكثير من التسهيلات لإيواء المسافرين جنباً إلى جنب ، وإلى ما حظى به الرحالة أيضاً من كرم الضيافة .

ولعل هذه الظروف هى التى هيأت لابن بطوطة أن يقوم برحلاته ، فيقطع آلاف الأميال متنقلاً فى ربوع البلاد مقيماً سنوات فى بعضها أو زائراً للبعض الآخر لمدة قصيرة . ومعروف أنه قطع المسافات الطويلة دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله . ووجد فى كل مكان من يستقبله ويؤويه ويقدم إليه الطعام ، لاعلى سبيل التكرم والتفضل ، بل لأنه كان هناك تنظيم محكم وضعته الأمة ، وقامت على رعايته وتنفيذه دون تدخل

الدولة . وهذا التنظيم وثق الاتصال بين أهل المغرب وإخوانهم فى البلاد الإسلامية بالمشرق ، الأمر الذى رسخت معه روابط اللغة ، والدين ، حتى بعد أن تبددت الوحدة السياسية . بل لعل الرحلة كانت أقوى عند الرحالة المغاربة فى عهد التفرق السياسى منها فى عهد الوحدة . ذلك لما اعتاده العالم الإسلامى من حياة اجتماعية ، ودرجة من المعيشة ، ونوعاً من الحياة ، ولوناً من التفكير مما حتم على أفراده الاتصال والاتجار والتبادل الفكرى والأدبى .

استغرقت رحلة ابن بطوطة أو رحلاته الممتدة المتصلة ثمانية وعشرين عاماً من حياته . ما كادت تتفتح حياته على العقد الثالث من عمره – كما صرح بذلك من قبل – حتى خلف والديه فى طنجة ، وراح يطوى البلاد والأقطار فى عزيمة شابة لم توهنها مشقات الزمان ولا أهوال الأخطار ، فقضى ربيع حياته وشطراً من خريفه جوالاً رحالاً ، مغترباً . ومن ثم فإن البعض يعده رحالة فريداً لا يماثله كثيرون فى ملكة الارتحال وحب الطواف والاغتراب .

ورغم أن رحلته حظيت باهتمام كثير من الباحثين العرب والمستشرقين ، فإنهم لم يقدموا لنا ترجمة وافية لابن بطوطة ، تبين كيف تعلم ، ومن شيوخه فى الصغر . كما لم يرد ذكر لمشايخه فى «الأعلام» ولا فى «دائرة المعارف الإسلامية» ، بل ورد عنه ما يلى : (وابن بطوطة وليد أسرة عريقة فى الاشتغال بالعلوم الشرعية أى من أبناء الطبقة الدينية العليا ، فى المجتمع الإسلامى فى القرون الوسطى ، ولذا فالراجح أنه درس العلوم الدينية وتفقه فيها . ويضاف إلى هذا أنه تعلم الأدب ومارس الشعر ، ودرس اللغة الفارسية ، وشواهد كل ذلك فى بطن كتابه) .

يؤكد ذلك ما يقوله الدكتور حسين مؤنس : (ومن أسف أن معلوماتنا عن نشأة ابن بطوطة وبيته قليلة جداً ، لأن أحداً من أصحاب كتب التراجم لم يقدم لنا شيئاً شافياً عنه ، وكل ما نستطيع قوله هو أنه ولد بحسب ما ذكره ابن جزى فى مدينة طنجة فى يوم الاثنين السابع عشر من شهر رجب سنة ٧٠٣ هـ الرابع والعشرين من فبراير سنة ١٣٠٤ ميلادية لأب من أوساط الناس يسمى عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى فى درب صغير يحمل الآن اسمه فى تلك المدينة الجميلة طنجة ، وهى جوهرة من جواهر بلاد الإسلام جمالاً وإشراقاً) . أما اسم «ابن بطوطة» فليس جزءاً من اسمه وإنما هو شهرته ، ومازال ذلك الاسم معروفاً إلى اليوم فى المغرب .

ويروى أنه نشأ بين أهله وذويه فى بسطة من العيش وطمأنينة بال، فلم يكن يخطر على باله أن يترك أهله ويهجر وطنه ويسافر إلى غير بلاده حتى دعاه داعى الحج فخرج ملبياً داعى الله . والمطلع على رحلة ابن بطوطة يلمس من خلال كلامه عن نفسه أنه كان شديد التأثر ، يقظ الوجدان ، رقيق العاطفة ، معظماً للأتقياء ، والصالحين . يزور قبورهم للتبرك بهم . ويروى كثيرا من كراماتهم ، وما ينسب إليهم من أعمال البر . وكان لا يفتأ يذكر أن ما متع به فى حياته من نعمة إنما جاءه لأنه كان قد حج أربع مرات . أما سرعة تأثره وحساسيته الشديدة فإنها كانت تدفعه إلى الحزن والانقباض عند شعوره بالوحدة والغربة . يقول ص٦ : (فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ولم يسلم على أحد لعدم معرفتى بهم، فوجدت من ذلك فى النفس مالم أملك معه سوابق العبرة ، فاشتد بكائى، فشعر بحالى بعض الحجاج فأقبل على بالسلام والإيناس) .

لكن شخصيته الجذابة حببت إليه كل من كان ينزل فى كنفهم ، ويجعلهم يعلقون به ، ويهدون إليه فاخر الثياب ، ويزودونه بالمال . وفى كثير من الأحيان كانوا يولونه أمراً من أمور الحكم عندهم كالقضاء . نظراً لما وجدوه عنده من سيطرة الوازع الدينى الذى أخذ ينمو حتى وصل إلى حد الزهد والانقطاع لعبادة الله سبحانه وتعالى ، فلم يكن ينغمس فى الملذات والموبقات التى كان يشاهدها ، بل إنه كان يستعيذ بالله منها ، ويعمل على تغييرها . كما حاول أن يمنع خروج النساء عراة فى بلاد الهند وفى بلاد السودان ، لكنه لم يستطع .

يقول عن نفسه فى الجزء الثانى ص ٩٢ : (ولما كان بعد مدة انقبضت من الخدمة ولازمت الشيخ الإمام العابد الزاهد الخاشع الورع ، فريد الدهر وحيد العصر كمال الدين عبد الله الغازى ، وكان من الأولياء ، وله كرامات كثيرة ، فقد ذكرت له منها ما شاهدته عند ذكر اسمه ، وانقطعت إلى خدمة هذا الشيخ ووهبت ما عندى للفقراء ، والمساكين ، وكان الشيخ يواصل عشرة أيام وربما يواصل عشرين يوماً فكنت أحب أن أواصل فكان ينهانى ويأمرنى بالرفق على نفسى فى العبادة ، ويقول لى ، إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، وظهر لى من نفسى تكاسل بسبب شىء بقى معى فخرجت عن جميع ما عندى من قليل وكثير وأعطيت ثياب ظهرى لفقير ولبست ثيابه ولزمت هذا الشيخ خمسة أشهر ، والسلطان إذ ذاك غائب ببلاد الهند) انظر طبعة المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ١٩٦٤ .

ومما ذكره أيضا أنه كان كثير القراءة فى كتاب الله ، وأنه وهو فى بلاد السودان جاءه هاتف وهو نائم وقال له لماذا لا تقرأ سورة يس كل يوم ؟ فأخذ على نفسه عهداً أن يقرأها كل يوم وليلة ، (وكنت أقرأ القرآن

كل يوم وأتهجد بما شاء الله وكنت إذا أكلت الطعام آذانى فإذا طرحته وجدت الراحة وأقمت كذلك أربعين يوما) ص ٩٣ جـ٢ .

لنا أن نتوقع بعدئذ أن يقف ابن بطوطة طويلاً عند رجال الدين ، وزوايا المتصوفة ، وأمور الإسلام . نذكر من هؤلاء – على سبيل المثال – الشيخ برهان الدين ، الذى زاره ابن بطوطة فى الإسكندرية عندما نزلها وظل فى ضيافته ثلاث ليال . وربما يكون الشيخ هو الذى دفعه إلى التوغل فى البلاد القاصية مثل الهند والصين . والشيخ أبو عبد الله المرشدى الذى زاره ابن بطوطة فى مدينة فوة بالقرب من رشيد وبات عنده. أما السلطان محمد شاه فإن ابن بطوطة حظى بعنايته وتكريمه ، حيث ظل فى كنفه ثمانى سنوات ، وتولى القضاء بالمذهب المالكى . وإذا كانت صلة ابن بطوطة بكثير ممن التقى بهم عابرة ، فإنه لم يستقر هذا الوقت الطويل إلا عند السلطان محمد شاه سلطان الهند .

ومن خلال الصفحات الكثيرة التى دونها ابن بطوطة عن دولة الهند، نرى أن سلطانها قد اشتهر بمحاربة ومجاهدة ممالك الكفار المجاورة له، وقد أخضع القسم الأكبر منها . ويلاحظ أيضاً أن حالة الأمن مضطربة . حتى إنه قضى معظم فترة حكمه فى إخماد حركات التمرد ضد أعدائه ، حتى إنه كان يغيب السنة والسنتين عن العاصمة ، يجاهد خصومه والمتمردين عليه . وعلى طول مقام ابن بطوطة فى الهند لا نزال نسمع بعدوان اللصوص وقطاع الطرق على السابلة والتجار وأهل المدن ، فيروى لنا ابن بطوطة غارات اللصوص بجيش كبير يتألف من ألف فارس وثلاثة آلاف راجل على نحو عشرين كم من مدينة (جالالى) عليكرة ونهبوها .

وكاد ابن بطوطة يقتل فى إحدى هجمات اللصوص هذه ، لكنه نجا بأعجوبة ، ووقع مرة فى أسر إحدى هذه العصابات ، إلا أنهم أطلقوا سراحه بعد أن عطفوا عليه .

ويسرد لنا ابن بطوطة أخبار هذا السلطان فى جانبيها الإيجابى والسلبى . فهو متواضع متمسك بالشريعة الإسلامية لكنه محب لإراقة الدماء وإعدام الناس . فكان يقسو إذا تجرأ أحد وخرج عليه ، لا يراعى ديناً ولا خلقاً ، وفى ذات الوقت يبالغ فى التمسك بما يظنه هو الدين كالصلاة والصيام ومظاهر التواضع والعدل . ومما يذكره ابن بطوطة عن هذا السلطان حبه الشديد للعرب ، وبخاصة بقايا البيت العباسى الموجود فى مصر . فقد بايع الخليفة العباسى (أبو العباس بن الخليفة بن الربيع سليمان العباسى) الموجود فى مصر ، إلى غير ذلك من السلوكيات التى تؤكد ذلك .

ومما يذكره ابن بطوطة أن هذا السلطان قد أغدق عليه الأموال ، وعينه قاضى العاصمة دلهى ، مما جعله يتحول إلى رجل ذى ثراء ، غير أنه دخل فى بعض الخلاف مع السلطان ، حين اتهم بزيارة أحد الأعضاء المعادين للسلطان ، فأقاموا عليه الحراسة تمهيداً لعقابه . كما دخل فى مشاكل مع وزير السلطان (خداوند زادة ضياء الدين) مما جعل ابن بطوطة يمر بأوقات صعبة مرة ، إلى أن كلفه السلطان بأن يكون رسوله إلى ملك الصين مصحوباً بهدايا ثمينة له ، ومعتذراً بعدم إمكانية السماح ببناء معبد بوذى فى أرض الإسلام كما طلب ملك الصين . فخرج ركب ابن بطوطة مبتدئاً هذه المهمة عام ٧٤٣ هـ - ١٣٤٢ م .

توحى لنا هذه العلاقة بأمرين : أما أولهما فإنه اهتمام ابن بطوطة بذكر الشخصيات الدينية والعلمية التى التقى بها فى كل بلد زاره أو حل به . وأما الثانى فإنه كان دائما موضع احتفاء وتكريم . ويذهب الدكتور حسنى محمود حسين إلى أن ابن بطوطة كان يستشعر لذة خاصة فى ذكر الأشخاص الذين عرفهم وفى التحدث عنهم . وهم بهذا يشغلونه كثيراً حتى لكأن ذكرهم هواية وتبرك . فيروى من كراماتهم وأحاديثهم فيشوق القارئ ويطلعه على نواح من حياة المجتمع فى زمنه . ويتصل بذكر هؤلاء الناس الفيض العميم من الحكايات والكرامات التى يذكرها عنهم ولهم أو لغيرهم .

أتاحت الرحلات المتعددة لابن بطوطة أن يشاهد مالم يطلع عليه غيره من الرحالة السابقين . وهو ما وصفه فى رحلته ، ولم نقرأه عند غيره. ذلك أنه لما قرر مغادرة الهند . بعد أن ساءت العلاقات بينه وبين سلطان دهلى - قصد زيارة جزر «الملديف» القريبة من الهند ، لما لها من شهرة عالية . وتسمى أحياناً جزائر «ذيبة المهل» . تولى ابن بطوطة وصف ثمارها ، وطبيعتها ، وفواكهها ، وعمل الرجال بها . غير أن ما أتى به من جديد هو صورة المرأة فى هذه الجزيرة : عاملة ومترفة ، كادحة وبالغة الثراء .

وما إن وصلت السفينة التى كانت تقله إلى إحدى جزر «ذيبة المهل» وكانت تدعى «كنلوس» ، حتى فوجئ بأن سكانها يدينون بالدين الإسلامى شأن سائر الجزر الأخرى . وعرف أن الإسلام انتشر فيها على يد رجل مغربى وصل إليها . وطبعاً ، لقى من فقهاء هذه الجزيرة كل كرم وحفاوة .

ثم تابع رحلته حتى بلغ جزيرة المهل عاصمة الجزر بعد عشرة أيام من وصوله جزيرة كنلوس . وكان يتصرف فى شئون هذه الجزر امرأة تدعى خديجة . وكانت متزوجة من أحد وزراء دولتها وإليه آلت مقاليد الأمور . ولما انقرض جميع الذكور من سلالة بيتها آل إليها السلطان .

وتهيأ قصر السلطانة خديجة لاستقبال ابن بطوطة ، لأن السلطانة رأت أن تستخدمه فى تولى منصب القضاء . ورأى هو أن أهم الأعمال التى يمكن أن يقوم بها هو القضاء على بقاء المرأة المطلقة فى بيت زوجها السابق حتى تتزوج غيره . وأُتيحت له الفرصة كى يدرس العلاقات الاجتماعية فى أدق تفاصيلها . ومما لفت نظره مشاهدته النساء يسرن دون غطاء على رءوسهن ، ويمشطن شعورهن ويجمعنها إلى جهة واحدة . ولا يلبسن إلا فوطة واحدة تسترهن من السرة إلى أسفل ، أما سائر أجسادهن فتبقى مكشوفة ، ثم يسرن على هذا النحو فى الأسواق وغيرها . وقد حاول الوقوف ضد هذه العادة بعد أن ولى منصب القضاء لكنه لم يوفق .

كما لاحظ مغالاة النساء فى استعمال الحلى ، فكن يكثرن من لبس الأساور حتى إن المرأة منهن تجعل فى ذراعيها ما يملأ بين الكوع والمرفق . وكانت معظم هذه الأساورمن الفضة . بيد أن نساء السلطان وأقاربه يستخدمن الأساور من الذهب . بالإضافة إلى الخلاخيل فى أرجلهن وقلائد الذهب على رءوسهن . وانفردت عامة النسوة فى هذه الجزر بتقليد كان موضع دهشة ابن بطوطة ، فكن يؤجرن أنفسهن للخدمة بمنازل الأثرياء مقابل عدد معين من الدنانير ، وعلى مستأجرهن الإنفاق عليهن،

دون أن تجد النسـوة عيبا فى ذلك . فكان يوجد فى دار الرجل الغنى عشرة أو عشرون امرأة ، يقمن بأعمال الخدمة ، وكل ما تكسره من الأوانى يحسب عليها قيمته . وإذا أرادت إحداهن الخروج من دار إلى دار أخرى ، أعطاها رب البيت الذى تركت خدمته ماتستحقه من الدنانير ، وتدعها عند صاحب المنزل الجديد الذى التحقت بخدمته .

وقد تزوج ابن بطوطة من نساء هذه الجزر على يد وزيرها ، من خلال قصة طريفة لا يخجل ابن بطوطة من ذكرها . بمثل ما إنه لا يتردد فى الإشارة إلى عدم توفيقه فى أن يكسو النساء شبه العاريات . وإن كان قد وفق فى جعل الرجال يقيمون الصـلاة ، وفى أمرهم بالمبادرة إلى الأزقة والأسـواق إثر صلاة الجمعـة . وفى إلزامه الأئمـة والمؤذنين أصـحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسـبيله ، والكتابة إلى جميع الجزائر بنحو ذلك .

هناك صورة أخرى للمرأة يقدمها لنا ابن بطوطة ، وذلك فى المرحلة الأولى من رحلته إذ كان بمكة (نساء مكة فائقات الحسن ، بارعات الجمال ، ذوات صلاح وعفاف ، وهن يكثرن التطيب حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيباً ، وهن يقصدن الطواف بالبيت فى كل ليلة جمعة ، فيأتين فى أحسن زى ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن ، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً) .

وفى اليمن ، وبالتحديد فى مدينة زبيد حيث الأخلاق الحسنة ، والصور الجميلة ، والحسن الفائق ، يعجب ابن بطوطة بنسائها وتقاليدهن، إذ (تخرج النساء ممتطيات الجمال فى المحامل ، ولهن مع ماذكرناه من

الجمــال الفــائق الأخــلاق الحســنة والمكــارم . وللغــريب عندهن مزية ، ولا يمتنعن من تزوجه ، كما يفعل نساء بلادنا ، فإذا أراد السفر خرجت معه وودعته ، وإن كان بينهما ولد فهى تكفله ، وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه ، ولا تطالبه فى أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها ، وإذا كان مقيماً فهى تقنع منه بقليل النفقة والكسوة . لكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبداً ، ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل) .

إلى جانب صورة المرأة ، ودورها ، ووجودها ، وحركتها فى المجتمع ، نجد كثيراً من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية وقد سلط ابن بطوطة أضواءه القوية ليكشفه ، وليعرفنا به ، من خلال ما احتوته (تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) الذى لم تكن هناك نية لكتابته أصلاً ، لولا إلحاح السلطان أبى عنان المرينى .

ولنا أن نتصور رحلة امتدت إلى ما يقرب من تسعة وعشرين عاماً ، وانتقل صاحبها من بقعة إلى أخرى ، ومن صقع إلى آخر ، ومن أقصى طرف إلى أدناه ، ومن شعب إلى شعب ، ومن تقاليد قوم وعاداتهم إلى تقاليد أخرى ، ومن سلطان إلى سلطان ، ومن فقيه إلى فقيه ، ومن مغامرة إلى مغامرة ، ومن قصة إلى خرافة ، ومن ثقافة إلى ثقافة ، ومن غرائب إلى أخرى . هذه الإطالة البانورامية على العالم الاسلامى فى القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى . هذا اللقاء والتمازج بين الحضارة الإسلامية والهندية ، هو الذى أضافه ابن بطوطة إلى أدب الرحلات .

إن رحلة ابن بطوطة تحتوى على كثير من الموضوعات التى تهم الجغرافى والمؤرخ والعالم الاجتماعى والاثنوجرافى . فقد نقل إلينا كثيراً عن أحوال بعض المجتمعات التى شاهدها وعاش فيها من عادات الناس وتقاليدهم ، وملابسهم وأطعمتهم وأشربتهم وشعائرهم الدينية .

وإذا كان بعض الباحثين يأخذون عليه بعض المآخذ ، فإن هذا لا يلغى دور رحلته فى مشوار أدب الرحلات ، بل لا يمكن الحد من تأثيرها الممتد منذ صيغت وعرفت كتاباً مطبوعاً حتى الآن . وقد سبق لنا القول بأن الناس لا يعرفون من أدب الرحلات إلا رحلة ابن بطوطة . وهو إذا كان قد تأثر بابن جبير ، مما يؤكد ريادة ابن جبير لهذا اللون من الكتابة الأدبية ، وإذا كان قد خضع لبعض إضافات ابن جزى ، فإن هذا لا ينفى إضافاته الكثيرة . ولعل أهمية رحلة ابن بطوطة من حيث التأثير النفسى والوجدانى والعاطفى ، هى التى دفعت بعض الناقدين إلى أن يتخذوا منها موقفاً سلبياً .

ويبدأ هذا الموقف منذ أقام ابن بطوطة فى حاشية السلطان أبى عنان ، وبعد أن أخذ يحدث الناس بما رآه من عجائب صنع الله فى خلق الحيوان والنبات ، وماشاهده من أخلاق الأمم وعاداتهم وأحوالهم ، مما كان يعد غريباً عند من لم يره أو يقع مثله له . دفع هذا جماعة من معانديه وحساده ممن نفسوا عليه منزلته لدى السلطان يكذبونه ، ويسفهون رأيه ، ويعدون ما أتى به حديث خرافة وافتراء .

ثم جاء ابن خلدون فى مقدمته بما يكشف لنا عن حال ابن بطوطة فى أهل زمانه حيث يقول : (ورد بالمغرب لعهد السلطان أبى عنان من ملوك بنى مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق ، وتقلب فى بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلى حاضرة ملك الهند ، وهو السلطان محمد شاه ، وكان له منه مكان واستعمله فى خطة القضاء بمذهب المالكية ، ثم انقلب إلى

المغرب واتصل بالسلطان أبى عنان ، وكان يحدث عن شأن رحلته ، وما رآى من العجائب بممالك الأرض ، وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتى من أحواله بما يتعجب منه السامعون . مثل أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر يعطونه من عطائه ، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل فى يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ، ويطوفون به ، وينصب أمامه فى ذلك الحفل منجنيقات ، ترمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه ، وأمثال هذه الحكايات . فتناجى الناس بتكذيبه) .

كذلك فإن كاتب الرحلة ابن جزى شك فى بعض ما نقله حيث قال (وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ولا اختبار) .

ويأتى الاستاذ أحمد أبو سعد برأيين مختلفين معاصرين : الأول يقول بصدق الرحلة ، والثانى يذهب إلى الشك فيما روته الرحلة ، وليس الشك فى صدق ابن بطوطة (فذهب قوم إلى أنها أوفى وأصدق ما ألفه العرب والعجم فى تقويم البلدان ، وشك آخرون بصدق ما روته وبخاصة وصول ابن بطوطة إلى بعض الأقاليم (الصين مثلاً) وإيراده الخبر بصورة مبالغ فيها أحياناً ، وإعراضه عن ذكر التفاصيل المتعلقة ببعض المدن والأقطار (إغفاله القلعة فى بعلبك) وعدم ترتيبه أسفاره ترتيباً يعنى فيه التسلسل الحادثى أو التسلسل الزمنى ، وذكره الأسماء مختلفة لفظاً (فى المناطق الشرقية القصية) ، وعدم تصوير الأماكن تصويراً واضحاً مما

حمل هؤلاء على القول بأن أدب الرحلة يفتقر عند ابن بطوطة إلى عنصرين هما الأمانة العلمية والنقد المحلل) .

إلا أن بعض المستشرقين اعترفوا بصحة المعلومات التى أوردها ابن بطوطة ، مؤيدين ما قال عن طريق الرحالة الذين جابوا الآفاق ووصلوا إلى ذات الأماكن التى حددها ابن بطوطة ، وكانوا قد قاموا بجولاتهم بعده بزمان طويل . وأكد «بروكلمان» وصول ابن بطوطة إلى الصين ، ثم رجوعه ، وقصه الغريب من الحكايات والعجائب ، وبخاصة ما يتصل منها بالهند . وهى عجائب موجودة حتى الآن ولا تحتمل التصديق أيضاً .

وأخيراً هناك من يأخذ على ابن بطوطة أنه لا يكاد يحرك لسانه بكلمة واحدة توجه أو تنقد ، على عكس مارأينا من مواقف حادة من ابن جبير فى «عيذاب» وفى مكة نفسها إزاء تصرف أميرها «مكثر بن عيسى» مع الحجاج ومع صاحب الكعبة ! كيف نطلب ممن يمتدح كرم السلاطين والعلماء والفقهاء والأمراء ، ويشرح لنا صور تكريمه أن يكون لاذعاً أو ناقداً ؟! لقد كان يشيد بكتب التوصية به من هذا الأمير إلى الآخر . يكفى ما قدمه ابن بطوطة من عمل أدبى ساهم به فى تطور أدب الرحلة ، فكان كتابه (تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) حلقة فى سلسلة متصلة الحلقات .

***

كان وقوفنا المطول عند كل من ابن جبير وابن بطوطة لأنهما أشهر من كتبا فى هذا اللون . ولأن كثيراً من المؤلفات وقفت عند ابن بطوطة دون أن تربط بينه وبين ابن جبير . فهناك مواضع تأثر واضحة فى رحلة

ابن بطوطة كان لزاماً أن نشير إليها . وفى اعتقادنا أنهما معاً قد أسهما فى إرساء دعائم هذا الأدب . لكن الإكتفاء بهما لا يسمح بجلاء الصورة ، ولا بتأصيل المكانة ، ولا باستمرارية هذا الأدب . ومن ثم فإنا سوف نحاول الإشارة إلى تجارب أخرى فى هذا الإطار . سبق بعضها ابن جبير وابن بطوطة . ولم يستوف بعضها الآخر معالم هذا الأدب .

هناك – على سبيل المثال – «رحلة الإمام الشافعى» وقد رواها تلميذه «الربيع بن سليمان الجيزى» . وهى تقع فى إحدى وثلاثين صفحة . توجد منها نسختان خطيتان فى دار الكتب المصرية . وهى تنتهى برحلته إلى مصر ، بعد وفاة الإمام مالك بن أنس . نقرأ فى آخرها عبارة للإمام الشافعى نصها : (فهذا جميع ما لقيت فى سفرى فافهم ذلك ياربيع) .

وتدور صفحات الرحلة حول سفر الإمام الشافعى من مكة إلى المدينة وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، حيث اكتشف الإمام مالك نبوغه . ومن ثم نزوله ضيفاً عليه مدة ثمانية شهور . وأخذ الشافعى يملى الموطأ على وفود العلماء من مصر وغيرها . بعدها ينتقل الشافعى مسافراً إلى العراق ، حيث ينزل فى قصر محمد بن الحسن فى الكوفة . ويأخذ الشافعى فى تنبيه محمد بن الحسن إلى الصواب من مذهب أبى حنيفة . ويطوف العراق وأرض فارس وبلاد الأعاجم . حتى يصل إلى بغداد ، ويلتقى بهارون الرشيد . ثم يرحل إلى ديار ربيعة ومضر وينزل فى حران حيث يرتب له الإمام مالك مرتباً سنوياً . وبعد وفاة مالك يخرج إلى مصر . هذا لون من الكتابة ركز على العلماء فقط ، وأهل الحديث ، وتسليط الضوء على الإمام الشافعى الذى ولد سنة خمسين ومائة (فى غزة أو عسقلان)

وهى السنة التى توفى فيها أبو حنيفة ، وما إن بلغ السنتين حتى أخذته أمه إلى الحجاز عند قومها من أهل اليمن ، إذ إنها أزدية . فلما بلغ عشراً ذهبت به إلى مكة بين قومه من قريش خوفاً من ضياع نسبه .

وتستطرد الرحلة فى الحديث عن علمه الغزير ، ومعرفته بأيام الناس من أهل السير والخبر والفقه والتفسير إلى جانب كونه من أئمة المذاهب الإسلامية . وتصف معالم مكة ، ونظامها ، وفنون العمارة فيها ، ونمط الحياة الذى يختلف عما هو عليه أهل الحجاز من ضيق . ويقال إن الإمام الشافعى حزن حزناً شديداً لوفاة الإمام مالك ، فضاق به الحجاز ، فغادرها إلى مصر ، وقضى بقية عمره فيها . وكان آخر ما أملاه على تلميذه «ربيع» : (هذا جميع مالقيت فى سفرى فافهم ذلك ياربيع) .

وقد كتبت الرحلة بأسلوب سهل ، ولغة منتقاة ، وكلمات بسيطة .

تأتى فى هذا الإطار (الرحلة فى طلب الحديث الواحد) للإمام الحافظ المحدث الحجة الثبت المؤرخ «أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدى البغدادى» . ولد سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة هجرية ، وتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة هجرية ، فى قرية تقع جنوب غرب بغداد «درزيجان» . فى بيت علم ودعوة . اصطحبه والده ليستمع إلى الحديث فى جامع بغداد ٤٠٣ هـ . وانصرف حيناً لتعلم الفقه ، ثم لم يلبث أن عاد إلى مجالس الحديث وهو فى الثامنة عشرة من عمره .

فى عام ٤١٢ هـ رحل إلى البصرة ، وسمع مشايخها ، وأخذ عن أهل الكوفة ما عندهم من الحديث . وعاد إلى بغداد ، وأصبح محل ثقة علمائها ، لكنه لم يرض إلا أن يستمر فى التزود بالعلم ، فعزم على الرحلة

من جديد . وفى ٤٤٤ هـ خرج من بغداد إلى الحج . فى ٤٤٥ هـ ذهب إلى دمشق . وللحافظ مؤلفات كثيرة جاوزت الثمانين . فى الحدث وعلومه . فى الفقه وأصوله . فى الأدب . فى التاريخ .

والرحلة فى طلب الحديث ليس موضوعه الرحلة فى طلب الحديث جملة كما قد يتبادر إلى الذهن منذ الوهلة الأولى . وإنما تناول الحافظ أبو بكر جانباً واحداً من هذا الموضوع هو الرحلة من أجل الحديث الواحد فقط . والكتاب يقع فى أربع وعشرين صفحة ، كتبت بخط الإمام الفقيه أبى محمد عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد المقدسى الحنبلى ، وهو يروى الكتاب عن مؤلفه بثلاثة أسانيد تؤخذ مما استمع إليه . ويتناول الكتاب عدداً من الموضوعات منها : ذكر الرحلة فى طلب الحديث والأمر بها ، والحث عليها ، وبيان فضلها . ذكر رحلة نبى الله موسى عليه السلام ووفاته فى طلب العلم - ذكر من رحل فى حديث واحد من الصحابة الأكرمين رضى الله عنهم أجمعين - ذكر الرواية عن التابعين فى مثل ذلك. ذكر من رحل إلى شيخ يبتغى علو إسناده فمات قبل الظفر منه ببلوغ مراده ...

وهذه الرحلة كسابقتها من حيث إنها لا تعنى بالأماكن ، أو المدن ، أو العادات والتقاليد ، أو الطعام والشراب والملبس ، وما إلى ذلك . وإنما هى تهتم فى الدرجة الأولى بمن اجتهدوا فى طلب الحديث الواحد أى بتوثيق رواية حديث واحد ، والتأكد من صحته من أكثر من راو ومحدث ، وتجربة الحافظ فى هذا الشأن ، بالإضافة إلى الموضوعات التى أشرنا إليها .

ننتقل إلى الحديث عن رحالة يستهدف دراسة البلاد والشعوب الإسلامية من ناحية ، ويرغب فى الارتزاق من التجارة من ناحية آخرى ، ويطوف العالم الإسلامى شرقاً وغرباً ، ويتجول فى أرجائه نحو ثلاثين سنة . إنه أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى فى كتابه (المسالك والممالك) .

يقول إنه بدأ سفره من بغداد - مدينة السلام - يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ ، وكان فى عنفوان الشباب ، حديث السن ، ظاهر الاستطاعة ، قوى البضاعة كما يقول . واعتمد على السرد فى تقديم رحلته . فهو يحدثنا عن المدن : موقعها ، وأحوالها ، وطبيعتها ، وتجارتها ، وزراعتها ، وتاريخها ، ورجالها ، وملوكها ، تقديماً جغرافياً . وتناول الأقاليم الإسلامية إقليماً إقليماً ، وصقعاً صقعاً ، تبعاً لخط سيره فى الرحلة . فبدأ بديار العرب ، ثم بحر فارس ، المغرب ، الجزيرة ، العراق ، خوزستان ، بلاد فارس ، بلاد السند ، أذربيجان ، خراسان ، وكان خلال ذلك يذكر أحوال وأخبار بعض البلاد مثل الأندلس، وصقلية ، ومصر والشام ، وبحر الروم .

ورأى أن عماد الممالك فى الأرض أربعة ، أعمرها وأكثرها خيراً ، وأحسنها استقامة فى السياسة وتقويم العمارات ووفور الجبايات هى مملكة إيران ثم الروم وتشمل مصر ، والشام ، والمغرب ، والأندلس ، تليها مملكة الصين وتشمل ماوراء النهر ، واستثنى من هذه الممالك السودان فى المغرب والزنج لعدم توفر انتظام الديانات ، والأداب ، والحكم ، وتقويم العمارات .

استند ابن حوقل إلى الحقائق ، وعنى بتحديد مواقع البلدان ، وحدودها شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً . وذكر الجبال والأنهار . عند حديثه عن عمان يقول : طول بلادهم أربع مائة فرسخ . المستولى على هذه البلاد والمحتكم فيها لما دخلتها هو أحمد بن منجويه . وكان دار ملكه بمرباط وهى مدينة صغيرة على شاطئ البحر وعلى مسيرة يوم ونصف منها ... عمان ناحية ذات أقاليم مستقلة بأهلها وهى كثيرة النخل والفواكه والموز والرمان ، قصبتها «صحار» وهى على البحر وبها من التجارة والتجار ما لا يحصى وهى أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالاً ولا تكاد تعرف مدينة على شط فارس بجميع الإسلام أكثر عمارة ومالاً من «صحار» .

ويبدو أن ابن حوقل عقد علاقات طيبة مع بعض حكام البلاد التى مر بها وأقام فيها حيناً وعنى بوصفها . ذلك أنه عند ذكره لمنطقة التير إنها عبارة عن مساكن حارة جداً بين جبلين فى شعب ممتد وصلها سنة ٥٣٩ هـ وكان عميدها إذ ذاك محمد بن المرزبان من أهالى شيراز ، وقد لقب بصاحب السيف والقلم . يصفه ابن حوقل بأنه كانت له أريحية حازمية ومروءة حاتمية وأهلها ذوو مروءة ظاهرة ، ورياسته كاملة . هذه المساكن بها عدد من التجار ذوى اليسار منهم رجل يدعى حسن بن العباس له مراكب تسافر أقصى بلاد الهند والصين .

وهو لم يـدون رحـلته كما قام ابن جبير بتسـجيلها أو كما فعل ابن بطوطة ، وإنما قام بتسجيها وحدة واحدة ، بشكل موضوعى ، لا على شكل يوميات أو مذكرات ، إذ إنها استغرقت ثلاثين عاماً متصلة . استخدم فيها البر والبحر ، مما أتاح له فرصة اللقاء بكثير من النماذج ،

ومشاهدة كثير من الأماكن ، وقراءة عدد كبير جداً من المؤلفات . إذ مما يروى عنه أنه التقى بالاصطخرى الذى طلب منه مراجعة كتاب (المسالك والممالك) ففعل ابن حوقل ذلك ، غير أنه ما لبث أن أخرج كتاباً يحمل نفس الاسم ، معتمداً فيه على ما كتبه الاصطخرى .

وإذا كان ابن حوقل قد جاب آفاق العالم الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى ، فإن عبد اللطيف البغدادى اتجه إلى مصر فقط فى القرن السادس للهجرة وألف كتاباً حول رحلته إليها هو (الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر) .

والبغدادى مؤلف موسوعى الثقافة . ولد فى بغداد سنة ٥٥٧ هـ فى أحضان عائلة علمية ، ساعدته على تحقيق طموحه فى الدرس والتحصيل . وقد أتقن فى صغره علوماً شتى منها قسم من علوم القرآن والحديث والفقه ، وعلوم العربية من نحو وأدب ولغة . أضاف إلى ذلك دراسة العلوم كالكيمياء والطب . ثم الفلسفة الإسلامية . وكان كل ذلك على كبار علماء زمانه ، فى بغداد أوفى الموصل ، أو فى بلاد الشام حيث اجتمع بعلماء دمشق ودارت بينه وبينهم المساجلات والندوات العلمية . كما ذهب إلى عكا فى فلسطين والتقى بعماد الدين الكاتب . ثم انتقل إلى مصر فناظر علماءها . وعاد مرة أخرى إلى دمشق ومنها سافر إلى حلب ورجع إلى بغداد . ونظراً لذيوع صيته وشهرته العلمية كان الطلاب يجتمعون إليه ، والعلماء يقصدونه ، فى كل بلد يذهب إليه . وقد توفى فى الثانى عشر من المحرم سنة تسع وعشرين وستمائة ، بعد أن قضى اثنين وسبعين عاماً حافلاً بالجهود العلمية . وقد ذكر له الصفدى فى (الوافى بالوفيات) حـ٦ ص ٣٠٠ – ٣٠٣ ما يزيد عن التسعين كتاباً ورسالة .

والكتاب الرحلة يقع فى ٧٦ صفحة . وقد نال شهرة واسعة فترجم إلى عدة لغات أوربية لما يتضنه من وصف لمصر فى القرن السادس الهجرى . وفى أوائل القرن العشرين طبع طبعة حديثة تحت عنوان «عبد اللطيف البغدادى فى مصر» وقدم له سلامة موسى بكلمة قصيرة ، أتبعها بترجمة ضافية عن حياة المؤلف .

ولم يكشف البغدادى عن الدافع إلى تأليفه هذا الكتاب . لكن قراءة الكتاب تبين أنه ألفه بهدف تعليمى تثقيفى . أراد توصيل المعلومات التى سجلها عن مصر من جراء رحلته إليها . كما أن رحلاته جميعاً كانت بغرض التعليم فهى أساساً للدرس أو التدريس . يضاف إلى هذا أن المنهج العلمى ، والدقة الموضوعية ، التى كانت وراء تسجيل مشاهداته ، يشعران بالدافع العلمى إلى التأليف .

والمعلومات التى يقدمها البغدادى فى كتابه هذا نوعان : نوع يتعلق بما شاهده فى مصر من طبيعة واثار وجبال وسهول وزراعة ونهر النيل وعادات الناس . وقسم ثان تناول فيه بعض الحوادث التى وقعت لسكان مصر فى زمانه ، أثناء وجوده أو قبل مجيئه . وفى القسم الأول بفصوله المتنوعة لم يذكر إلا الأشياء التى تتميز بها مصر ، ويعد خصيصة من خصائصها . ولم يلتفت للأشياء المألوفة فى البلدان العربية الآخرى ، حتى يقدم الجديد الذى يدفع إلى زيارة مصر والشوق إليها . وكان لا يكتب إلا ما يشاهده بنفسه أو يقيسه بجهوده ذاكراً الحجم والخصائص والمميزات. وإن لم يتمكن من القيام بذلك كلف من يثق فيه ، بشرط أن يكون العمل فى وجوده وتحت نظره .

ويذكر أنه كلف أحد المتخصصين فى تسلق الهرم بأن يصعد إلى القمة ، ويقيس مساحتها ، فكانت أحد عشر ذراعاً بذراع اليد . ويقول إنه لو تمكن من الصعود إلى القمة لفعل وقاسها بنفسه . ولا يكتفى بالوصف وإنما يحاول تعليل ما يشاهده إن احتاج إلى تعليل . وفى هذا الجزء نراه يتحدث عن خواص النباتات وفوائدها أثناء حديثه عن الأطعمة والفواكه والخضر . أما القسم الثانى من الكتاب أو المقالة الثانية كما أطلق عليها فإنه ذكر فيها ثلاثة فصول . خصص الأول فى نهر النيل ، وكيفية زيادته ، وأوقات هذه الزيادة . وفى الفصل الثانى ذكر ما ألم بمصر سنة ٥٩٥ هـ من مجاعة ، بحيث اضطر بعض الأفراد إلى أكل لحوم الأطفال . وأشار إلى كثرة الموت جوعاً . وضمن الفصل الثالث حوادث سنة ٥٩٨ هـ ، ذاكراً موت عدد كبير من الأفراد ، وتهدم المدن ، ودمار العمران جراء الزلازل والمجاعة بحيث تعطلت المصالح والمعامل لقلة الأيدى العاملة .

ويلاحظ أن البغدادى جاب مصر كلها فى هذه الرحلة من الشمال حتى الجنوب ، والحوادث والآثار والمدن التى ذكرها تدل على ذلك . كما أنه لم يهتم بالمساجد والأماكن الدينية رغم كثرتها وتميزها ، لأنه استهدف وصف الأشياء غير المألوفة . يضاف إلى هذا أنه لم يول عنايته العلماء ورجال الدين دون غيرهم . إذ إنه اهتم بالجميع . فقد وصف منازل الفقراء والأغنياء ، وأطعمة كل منهما ، وعادات كل . وأعطى جل عنايته بالأمور المشاهدة ، وهو ما يبرر تلك المساحة التى احتلتها من صفحات الرحلة ! ومعروف أنه أتم كتابة رحلته فى رمضان سنة ستمائة للهجرة ، مع أن آخر ما ذكره من حوادث كان قد وقع سنة ٥٩٨ هـ .

ابتعد البغدادى فى رحلته عن الاستشهاد بالشعر ، رغم إشارته إلى كثرة القصائد التى نظمت فى الأهرامات والنيل . كما أنه لم يستخدم الأسلوب الإنشائى ، وإنما استعان بالإسلوب العلمى فى كتابة رحلته . لكن قدرته اللغوية جعلته يملك لغته ، فيصف الوصف الدقيق المجسد للشئ الموصوف في كلمات سهلة وألفاظ محددة وموظفة توظيفاً صحيحاً .

هذه الملامح الفنية الواضحة فى رحلة البغدادى نجدها ماثلة فى رحلة أبى الحسن الهروى (الإشارات) وكانت هى الأخرى لمصر . ويبدو أنها كانت منتشرة ومتداولة فى مصر ، لدرجة أن إحدى نسخ هذه المخطوطة كتبت سنة ٦٠٢ هـ أى فى حياة البغدادى . ومخطوطة (الإشارات) توجد منها ثلاث نسخ فى دار الكتب المصرية . ومما يذكر أن رحلة الهروى سبقت رحلة عبد اللطيف البغدادى . وثمة توافق فى طريقة التناول والوصف والأسلوب العلمى .

على غير مارأينا البغدادى فى اعتماده الأكبر على المشاهدة ، نجد القزوينى يسمح فى رحلته بما سمع به . لأن يستهدف أن ينتفع الناس بعلمه ، وأن يجعلهم يشاهدون ويقرأون مالم يستطيعوا رؤيته بأنفسهم ، فإنه بذلك ينال رضاء رب العالمين . ومن ثم جاء حرصه على جمع ما وقع له ، وعرفه ، وسمع به ، وشاهده من لطايف صنع الله تعالى وعجايب حكمته المودعة فى بلاده وعباده . والقزوينى هنا هو «زكريا بن محمد بن محمود القزوينى» المولود سنة ٦٠١ هـ . والمتوفى سنة ٦٨٢ هـ . ولقبه يدل على أنه من إقليم بحر «قزوين» شمالى إيران . عاش فى القرن السابع الهجرى . بمعنى أنه سبق بكثير من الرحالة أمثال ابن حوقل ، والمقدسى، والإدريسى . مما شجعه على القيام برحلاته ، وتسجيل ما رآه أو سمعه فى البلدان التى زارها .

ورحلته بعنوان «آثار البلاد وأخبار العباد» ، توجد منه نسخة غير مكتملة تقع فى مائة واثنتين وتسعين صفحة غير مؤرخة ، طبعت بالمغرب ، وثمة نسخة أخرى تقع فى ستمائة وإحدى وعشرين صفحة طبعت بدار صادر بيروت ١٩٦٩ . ومقدمة المؤلف واحدة فى النسختين . وهى فى ثلاث مقدمات كتبها المؤلف نفسه . يقول فى بدايتها : (فالعالم ينفع الناس بعلمه والعابد ببركته والصانع بصنعته ، فذكرت فى هذا الكتاب ما كان من البلاد مخصوصاً بمزيد لطفه وعنايته فإنه جليس أنيس . يحدثك بعجيب صنع الله تعالى ويعرفك أحوال الأمم الماضية وما كانوا عليه من مكارم الأخلاق ومآثر الآداب ، ويفصح بأحوال البلاد كأنك تشاهدها ويعرب عن أخبار الكرام كأنك تجالسهم) .

أما المقدمات الثلاث التى لابد منها - كما يقول - لحصول الغرض، فإنه فى الأولى تكلم عن الحاجة الداعية إلى إحداث المدن والقرى . والثانية فى خواص البلاد ، وفيها فصلان : الأول فى تأثير البلاد فى سكانها ، والثانى فى تأثير البلاد فى المعادن والنبات والحيوان . والمقدمة الثالثة فى أقاليم الأرض : الشمالى منها والجنوبى ، الشرقى والغربى . وقد قسم الكتاب إلى سبعة أقاليم . تكلم فى كل إقليم عن مدنه وقراه مرتباً على حروف المعجم . وهو يذكر البلدان غير الإسلامية إلى جانب المملكة الإسلامية .

وهو يختلف عن البغدادى فى أنه ميال إلى المبالغة التى تقرب من الخيال ، جرياً على الرغبة فى جذب القارئ بالقصص والأحاديث التى كان يسمعها . لذا فإنا نراه لا يكتب شيئاً عن بعض المدن ، اللهم إلا قصة

يكون قد سمعها من أحد التجار ، دون إشارة إلى معالمها ، وسكانها ، والحياة الاجتماعية فيها ، مثل حديثه عن جزيرة «سكسار» ، التى يقدمها من خلال حكاية يعقوب بن إسحق السراج عنها . والقزوينى كتب كثيراً عن حكايات الأمم السابقة ، وعن آثارها ، وما كتب على القبور فيها ، عله يذكر الناس بما وصل إليه سابقوهم من التقدم والعمران ، وبأنهم ابتعدوا عن خالقهم وعصوه سبحانه وتعالى . وواضح أنه بدأ بتدوين الكتاب على هيئة مذكرات يومية لما يسمع ويرى فى البلاد التى ارتحل إليها ، وبعد أن أتم رحلته إلى الأقاليم السبعة ، بدأ مرة أخرى فى إعادة كتابته من جديد. قد يظهر هذا من عدد الأماكن التى فهرسها وكتب عنها . وهى تبلغ ثمانمائة وتسعة وتسعون مكاناً .

وهو مولع بذكر القبور ، ووصفها ، وبيان ما عليها ، وغالباً ما نقرأ قوله : «يقول القزوينى ... مكتوب على قبر فلان» . كما يذكر بعض الخصال الحميدة التى يتحلى بها بعض الأقوام . كالقصص التى يحكيها عن بلاد «شعب» باليمن ، مما يعبر عن عزة العربى الذى يرفض أن يحنى رأسه لملك الروم . وعند ذكره مدينة غزة لا يتحدث عن تاريخها عبر العصور ، ولا عن آثارها وحضارتها ، ولكن الذى يستهويه فيها ذكر بعض الآثار للإمام الشافعى . ولا يعنى هذا أنه أهمل الأماكن المقدسة ، وشغل بالعلماء عنها ، من ذلك حديثه عن قرية «قبا» والمسجد الذى ذكره الله سبحانه وتعالى . وعن «يثرب» ومسجد النبى عليه الصلاة والسلام ، وقبره، وقبر أبى بكر وعمر . وعن «مكة» التى شرفها الله تعالى وخصها بالقسم ، وهكذا .

إلى جانب ذلك يتحدث عن الحضارة الفرعونية القديمة ،

وأبى الهول . لكنه فى كلٍّ كان يكتب كل ما يسمعه عن الموتى والقبور ، ولا يحاول الوقوف على درجة صحة ما يسمعه . مثال ذلك ما يقوله عند ذكره شداد بن عاد : ذكر لى بعض الناس قال : وجدت حجراً فى حضرموت مكتوباً فيه «أنا شداد بن عاد أنا الذى شيدت العماد وجندت الأجناد وسددت بساعدى الواد كنزت كنزاً فى البحر ليس يخرجه أحد حتى تخرجه أمة أُحُد» . هذه العبارة بنصها موجودة عند أبى محمد الحسن الهمذانى المتوفى ٩٤٥ م ، ولكنها مروية برواية أخرى . وذلك فى كتاب (الأكليل) ص ١٤٥ . وهى تأتى على هذا النحو : «روى عن أبى لهيعة عن هشام بن سعيد الرحال قال : وجدت حجراً فى الإسكندرية مكتوباً فيه : أنا شداد بن عاد ...... إلخ» . أحدهما ينسبها إلى حضرموت والآخر إلى الإسكدرية . والهمذانى توفى قبل ميلاد القزوينى بقرنين ونصف القرن تقريباً ..

ربما يدل هذا من بعض الوجوه على أنه لم يقم فعلاً بزيارة كل المدن والقرى التى ذكرها فى كتابه ، ولعله لم يصل إليها جميعاً. لأن الوصول إلى كثير مما ذكره فى كتابه كان متعذراً لأسباب تتعلق بوعورة الأرض وما إلى ذلك . وهذا هو الذى يدعوه إلى القول إزاء بعض البلاد إنها كانت بقرب مدينة كذا . ففى صفحة ٣٨٥ يقول عن مدينة «ساباط» : (بليدة كانت بقرب مدائن كسرى ، أصله بلاشاباد يعنى عماره بلاش ، وهو من ملوك الفرس ، فعربته العرب وقالوا ساباط . ينسب إليها حجام كان يحجم الناس نسيئة ، فإذا لم يأته أحد يحجم أمه حتى لا يراه الناس بطالاً ، فمازال يحجمها حتى ماتت ، فقالت العرب : أفرغ من حجام ساباط)

اعتمد القزوينى على السماع عن الأولياء الصالحين والقبور والأماكن والآثار . وقد صرح بذلك كما أشرنا فى بداية الحديث عنه.

توسل القزوينى بأسلوب بسيط بعيد عن التعقيد ، خال من الغريب، مستعيناً بعناصر القصة ، مستشهداً بشعر المتنبى وسنان الخفاجى وغيرهما من الشعراء ، سبعاً وخمسين مرة . اعتمد على السرد ، والخيال، بصرف النظر عن مطابقة ما يروى للواقع أم لا ؟! وقد أضاف بعض الخرائط التوضيحية التى تشبه الدوائر لتوضيح بعض الأماكن ؟ مما يدل على أنه كان على دراية بالجغرافيا والفلك والآثار وغيرها .

فى هذا الإطار تأتى رحلة «أبو محمد عبد الله بن محمد بن احمد التجانى» من سنة ٧٠٦ - ٧٠٨هـ.

وقد وقع فى اسم صاحب هذه الرحلة اضطراب كبير ناتج عن عدم وجود تعريف لحياته فى كتب التراجم . ومن اللبس الذى يحصل من إبدال أسماء الرجال بالكنى . كما أن تاريخ مولده لم يعرف بدقة . ويرجح أنه ولد ما بين ٦٧٠ - ٦٧٥ هـ (١٢٧٢ - ١٢٧٦ م) . تربى فى حجر أبيه العالم الأديب الذى كان أول من لقنه القراءة والكتابة . وفى مقدمة شيوخه « أبو بكر بن عبد الكريم العوفى » الوافد على تونس والمتوفى بها سنة ٦٩٨ هـ . و «الشيخ أبو القاسم بن أبى محمد عبد الوهاب بن قائد على الكلاعى» صاحب السيرة النبوية المشهورة بالسيرة الكلاعية ، أحد علماء الاندلس اللاجئين إلى تونس . والأخوان « أبو الحسن على بن الشيخ إبراهيم التجانى » و« أبو على عمر بن أبى إسحق إبراهيم التجانى » و «أبو على عمر بن محمد بن علوان التونسى» المتوفى بتونس عام ٧١٠ هـ.

انخرط فى سلك الكتاب فى ديوان الإنشاء حين كان يباشره أبوه وآخرون من أقاربه . وقربه إليه - فيما بعد - كبير الدولة وشيخ الموحدين

الأمير أبو يحيى زكريا بن اللحيانى ، مما جعل لذلك كله أثراً كبيراً فى كتبه ومؤلفاته المتنوعة التى تربو على التسعة كتب ، تأتى الرحلة واحدة منها . وقد طبعت مرتين . كانت الأولى فى المطبعة الرسمية التونسية القديمة عام ١٩٢٧ . أشرف علي تحقيقها آنذاك الأستاذ وليم مرسى ، دون أن تصدر بتوطئة مناسبة أو فهارس ، فلم تلق رواجاً مناسباً . وجاءت الطبعة الثانية بعد حصول تونس على الاستقلال ، حيث قامت وزارة التربية القومية بطبع الرحلة من جديد ١٩٥٨ .وقدم لهذه الطبعة الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ، وجاء التقديم فى ٤٦ صفحة . تحدث فيها عن أصحاب الرحلات من المغاربة . ووقف عند دور فريضة الحج فى سفر المغاربة إلى المشرق العربى .

وتقع أحداث الرحلة فى ٣٩٥ صفحة يليها فى صفحة ٣٩٩ فهرس لأسماء الرجال والقبائل . وفى صفحة ٥٠١ نجد فهرساً لموضوعات الكتاب . وفى صفحة ٥٠٣ تصويبات . كما يشتمل الكتاب على خريطة توضيحية تبين طريق ذهابه ورجوعه أثناء عودته . يبدأ التجانى رحلته بقوله : (أما بعد حمداً لله الذى سوغ عوارف فضله ، وأسبغ موارد ظله ، وقاد العبد بسائق حكمه إلى ما جرى فى سابق علمه ، من حالتى ارتحاله وحله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أظهر الله بهجرته الدين الحنيفى على الدين كله ، وقضى له بالبركة فى تلك الحركة ، فآل به الإيمان لعزه ، والكفر لذله ، وعلى آله وجميع أصحابه الذين هجروا حلالهم للهجرة إلى محله ، فهذا تقييد يشتمل على وصف ما شاهدته فى هذه السفرة المباركة من البلاد ، مضمن ذكر أحوالها ، وصفاتها ، وبيان طرقها ومسافاتها ، والإشارة إلى مفتتحيها ، وبناتها ، وأحوال من اشتملت عليه من أصناف العوالم ، وما تتميز به كل بلد من الآثار والمعالم) .

بدأت رحلته فى آخر جمادى الأولى من عام ستة وسبعمائة ، «صحبة الركاب العلى المخدومى الليمومى ، أعلى الله مقامه ، وأطال فى العز دوامه» . ولأول مرة تقرأ عن غرض خفى للرحلة وآخر سياسى . أما الغرض الذى كان ظاهراً فإنه استرجاع « جربة » إلى الإسلام ، وهذا هو الهدف السياسى . وأما الهدف الخفى فإنه التوجه لأداء فريضة الحج ، وكان هذا ما أعلنه مخدوم التجانى أبى فارس عبد العزيز بن عبيد . يقول التجانى : (.. وكان مراده منها بالقصد الأول إنما هو التوجه لأداء فريضة الإسلام ، التى لا يسع تركها بعد الاستطاعة عليها أحداً من الأنام ، بهذا تعلقت آماله ، وعليه كان عن الخلافة انفصاله ، إلا أن أمر الحج طوى على الناس فى هــذه الحركة ذكره ، وأخفى عنهم أمره ، وسـبب ذلك أنه لما علم فى تدبير الرعية من حسن غنائه ، وما اجتمعت عليه قلوب الجمهور واستتم من محبته وثنائه ، لو بين لهم انطلاقه . لأبدى كل منهم به اعتلاقه، فصدوه عن حجه ، وردوه عما يمم من نهجه ، فرأى أن كتم الحج أصلح ، وأنه الآكد فى طريق السياسة والأرجح ، فجعل أمر « جربة» سبباً إلى نيل ذلك المرام ، ورجا مع ذلك أن يكون على يده استرجاعها إلى الإسلام ، فأعلن بذكر التوجه إليها ، وأشاع أنها المقصودة بالحركة) .

ولا يختلف التجانى كثيراً عن سابقيه ممن وصفوا رحلاتهم لأداء فريضة الحج . إنه يقدم وصفاً لما شاهده فى هذه السفرة من البلاد ، متضمناً ذكر أحوالها ، وصفاتها ، وبيان طرقها ومسافاتها ، والإشارة إلى مفتتحيها وبناتها ، وأحوال ما اشتملت عليه من أصناف العوالم ، وما يتميز به كل بلد من الآثار والمعالم . ويزور الساحل التونسى الزاخر بالعمران قديماً وحديثاً ، ويمر بصفاقس ، ثم ينزل إلى الجنوب ناحية

قابس وجزيرة جربة ، فيعرفها ، متعرضاً للعقائد والعادات المحلية . وقدم أخبار المدائن والقرى التى مر بها كل واحدة بانفرادها ، وهو حريص عندما يدخل المدينة أو القرية فإنه يصف موقعها ومكانتها التاريخية والدينية ويربطها بواقعة تاريخية أو موقعة إسلامية . ويهتم بالأصول والفروع ، وينسب كلّ . ويشير إلى من كان من الشعراء . ولا ينسى الاستشهاد بالشعر . ويذكر مناسبة الأبيات . كما يذكر الممدوحين ومكانتهم .

وهو يرتب الشخصيات التى يلتقى بها وفقاً لأهميتها بالنسبة له . يتقدمهم الشعراء ، والشيوخ ، والفقهاء . وكان تأثره بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية عظيماً . ومهما يكن فإنه صور كل ما وقعت عليه عينه من آثار ومعالم ومساجد ومدارس وقبور وعيون وآبار وعلماء وفقهاء ، محاولاً تقديم كثير من المعلومات الجغرافية والتاريخية والبشرية ، متحرياً الدقة فى كل ما وصف . مستعيناً بلغة سهلة ، وأسلوب خال من الصنعة ، بأستثناء السجع الذى كان سمة عامة لأدب ذلك القرن . ويلاحظ أنه كان دقيقا كل الدقة فى الكتابة ، إذ حرص على تشكيل الألفاظ والكلمات . واحتفاله بالشعر جعله يذكر البحر العروضى الذى تنتمى إليه القصيدة . وختام الرحلة ونهايتها جاء فى شكل قصيدة فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام .

وبمناسبة الحديث عن نهاية الرحلة ، فإنه يجدر بنا الإشارة إلى أن مصير صاحبها ونهايته لا تساعدنا المعلومات على معرفتها . فهى ليست أوفر حظاً من المعلومات المتعلقة بمولده . فإن أحداث الاضطرابات السياسية والخطوب الدموية التى عاش فى غمارها التجانى فى أخريات

أيامه تلقى كثيراً من الضباب والغبار على مصيره ونهايته . إذ لم يرد له أثر أو خبر بعد سنة ٧١٧ هـ . بل يختفى نبؤه وأنباء آل التجانى جميعاً .

ويرجح حسن حسنى عبد الوهاب أن يكون التجانى قد مات بالقتل فى تلك المشادات الدموية . وإن كان هذا لا ينتقص من القيمة العلمية لهذه الرحلة ، التى كانت مرآة صافية تتمثل فيها صورة البلاد التونسية من حيث السكان ، وهيئتهم الاجتماعية ، والاقتصادية ، علاوة على تفصيل جغرافية القطر وتاريخه وتراجم مشاهير أبنائه ، وهو ما لم يجتمع فى بعض الرحلات السابقة . مضافاً إليها الوثائق التاريخية التى أوردها التجانى بنصها الأصلى ، والمكاتبات العائلية والإخوانية والرسائل الحافلة بالشعر العربى الأصيل والنثر الأدبى الرفيع . وكأنه أراد أن يأخذنا معه ويستضيفنا إلى جانبه لا أن يخبرنا فقط .

وهكذا يطول مشوار أدب الرحلة ، ويكثر عدد من ساروا فيه ، وشاركوا فى ركبه ، وبخاصة اعتباراً من القرن السادس الهجرى ، حين انطلقت على أوسع مدى ، وتجاوزت ديار المسلمين ، على أمل أن تحقق أهدافاً متنوعة : اقتصادية وهى تعمل لحساب التجارة ، ودينية وهى تعمل لحساب فريضة الحج . وإدارية وهى تعمل لحساب العلاقات بين الدول الإسلامية ومجتمع الدول الخارجية ، علمية وهى تعمل لحساب العلم وطلب المعرفة . وثمة سمة عامة فى معظم هذه الرحلات هى أنها فى الأغلب الأعم كانت جهداً ذاتياً .

وليس من شك فى أن الالتزام العقائدى لدى المسلمين كان له شأن قوى فى حثهم على السفر ، ليروا آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم . ومن ثم نالت الرحلة الإسلامية حقها الكامل من الاهتمام والأمان ، واستحقاقها

الفعال من قوة الدفع والحافز على الطريق فى البر والبحر . وأسهمت كتب الرحلة فى تأصيل لون من الكتابة أضيف إلى تراثنا العربى فى جوانبه المختلفة ، ففى مجال الكشف الجغرافى ووصف الأقاليم لعبت الرحلة دوراً كبيراً فيما تضمنته تلك الأعمال من معرفة ، وبيان ، وهذا ما يؤكده عبدالله محمد أحمد المقدسى أحد أقطاب التراث الجغرافى العربى فى (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) ، حيث يقول :

(نحن لم نبق إقليماً إلا وقد دخلناه وأقل سبب إلا وقد عرفناه ، وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر فى الغيب . فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام ، أحدها ما عايناه ، والثانى ما سمعناه من الثقات ، والثالث ما وجدناه فى الكتب المصنفة فى هذا البـاب وغيره . وما بقيت خزانة إلا وقد لزمتها ، ولا تصـانيف فرقة إلا وقد تصـفحتها ، ولا مـذاهب قوم إلا وقد عرفتها ، ولا أهل زهد إلا وقد خالطتهم) .

وقد أشرنا إلى دور الأندلسى أباعبدالله محمد بن محمد الإدريسى صاحب (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) الذى أمدته رحلاته المتعددة فى أجزاء من أوربا ، وأقاليم متعددة من البلدان الإسلامية بنبع فياض من المعرفة الجغرافية ، زادها قيمة مهارته فى صناعة الخرائط والكرة الفضية . مما دفع بعض المؤرخين إلى اعتباره أعظم جغرافى فى العصور الوسطى على الإطلاق ، جنباً إلى جنب ومؤلف (مروج الذهب ومعادن الجوهر) أبى الحسن على بن الحسين الشهير بالمسعودى . إذ إن رحلاته كانت بمثابة رحلات علمية لتدعيم دراساته فى التاريخ والجغرافيا . والمؤرخ الرحالة موفق الدين عبد اللطيف البغدادى وغيره وغيره .

ويضيف الدكتور حسين محمد فهيم فى كتابه (أدب الرحلات) هدفاً آخر هو صقل المنهج . يقول : (ولعل من بين أهمية الرحلة لأعمالها هو صقل المنهج ، وتأكيد المشاهدة والمعاينة ، الأمر الذى أوثق المرئيات وأكد حدوث الوقائع . هذا علاوة على ما وسعته الرحلة من أفق ومدارك كل من الجغرافى والمؤرخ بسبب اتساع دائرة اتصالها بالبلدان والأقوام ، وحوارهما مع العلماء وأصحاب المعرفة بأحوال البشر وتقلبات الأحوال فى الزمان والمكان) ص ٩٧ .

***

ويبقى أن نقف عند محاولة لتطوير شكل الرحلة وإطارها العام . ذلك إن معظم الرحلات السابقة دارت فى دائرة واحدة هى التسجيل الخارجى للأماكن ، ، والبلدان ، والطبيعة ، والأشخاص ، وابتعدت عن حدود «الذات» ذات الكاتب أو الرحالة ، اللهم فى القليل النادر ، كذلك فإنها نأت عن إعمال الخيال والرحلة فى الأفق البعيد . وما أقترب منها من القصص الخيالى عد بمثابة مأخذ يؤخذ عليها . كذلك فإنها التزمت باللغة الحادة القارة . وقليل منها استخدم الموسيقى الداخلية ، والكلمات ذات الدلالات العاطفية والانفعالية . ومع كونها كتبت نثراً فإنها لم تلتفت إلى المشاعر الداخلية ، والفضفضة فى التعبير عن الأحاسيس الداخلية . ولم يظهر للمرأة وجود فى معظمها رغم أن الوجود الخارجى الموضوعى للمرأة مؤثر وطاغ . والتزمت إما بالتسجيل اليومى فى شكل مذكرات ، مقيدة بالتاريخ الهجرى والميلادى . وإما بالتدوين بعد الرحلة من الذاكرة . وإما بالحديث عن الأماكن باعتبارها البطل الحقيقى لليومية . وإما بالوقوف عند الشيوخ والعلماء كعناوين رئيسية للفصول والأبواب والأقسام .

لكنا هذه المرة نفاجأ بمن يعلن عن نفسه دون خجل فى عنوان كتابه ، ويحدد موضوعه فى ذات العنوان ، بل إنه يحدد الإطار الجغرافى لموضوعه . إنه عبد الرحمن بن خلدون ٧٣٢ – ٨٠٨ هـ فى كتابه (التعريف بأبن خلدون ورحلته غرباً وشرقا) . إذن هو ترجمة شخصية ذات لصاحبها . مع بيان رحلته إلى الغرب حينا وإلى الشرق حينا آخر . الكاتب يواجهنا بنفسه ، وبفكره ، وبمشاعره . وبكل خطوة خطاها هنا أو هناك أو هنالك ، وهو لا يملى على أحد ما يخص حياته ، ومعاركه ، ورحلته ، ولكنه يمسك القلم ويكتب بنفسه عن نفسه للآخرين الذين سوف يقرءون ما يكتب ، بمعنى أنه هنا يريد أن يرفع الستار عن جانب آخر من جوانب هذه الشخصية الشهيرة ذائعة الصيت . بعد أن عرف العرب عنه دوره الاجتماعى ، والإدارى ، والقضائى .

ويؤكد أستاذنا الكبير الذى تخصص فى دراسة ابن خلدون الدكتور على عبد الواحد وافى : (.. أما ابن خلدون فهو أول باحث عربى يكتب عن نفسه ترجمة رائعة مستفيضة يتحدث فيها عن تفاصيل ما جرى له ، وما أحاط به من حوادث ، من يوم نشأته إلى قبيل مماته ، ويتحدث عن كل ذلك بدقة المؤرخ الأمين الحريص على الاستيعاب والشمول ، فلا يغادر شيئاً مما عمله أو حدث له إلا سجله ، حتى الأمور التى يحرص الناس عادة عل كتمانها لما تنم عليه من خلق غير كريم . وبذلك تدخل هذه الترجمة من بعض نواحيها فى الفن التاريخى الذى اشتهر باسم الاعترافات ، كاعترافات الغزالى فى كتابه «المنقذ من الضلال» واعترافات جان جاك روسـو فى كتابة « الاعتـرافات ») عبد الرحمن بن خلدون – ص ٢٣٩ إبريل ١٩٦٢ .

ذلك أن ابن خلدون ألحق ترجمته لنفسه بكتابه (العبر) ، ووقف عليها فى وضعها الأول نحو مائة صفحة من القطع الكبير فى آخر المجلد السابع منه ، و جعلها باباً على حدة سماه (التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب ، وانتهى فيها إلى مستهل سنة ٧٩٧ هـ . وختمها بقوله : (ولزمت كسر البيت ، ممتعاً بالعافية ، لابساً برد العزلة ، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه لهذا العهد ، فافتتح سبع وتسعين - أى فى فاتحة عام سبع وتسعين وسبعمائة - والله يعرفنا عوارف لطفه ، ويمد علينا ظل ستره ، ويختم لنا بصالح الأعمال ، وهذا هو آخر ما انتهيت إليه .) . وهذه هى النسخة التى طبعت فى اخر كتابه (العبر) بمطبعة بولاق بمصر سنة ١٨٦٨ م . ثم طبعت على هامش المقدمة فى طبعة الخشاب - المطبعة الخيرية لمديرها السيد عمر حسين الخشاب بمصر - لمقدمة ابن خلدون ، وهى التى ظهرت سنة ١٣٢٢ هـ .

ثم أدخل ابن خلدون على هذه النسخة بعض تعديلات وتنقيحات وزيادات فى المراحل التى عرضت لتاريخها وأضاف إليها تاريخ المراحل الأخيرة من حياته ، وهو تاريخ ابن خلدون من مستهل سنة ٧٩٧ هـ إلى نهاية ٨٠٨ هـ . أى إلى ما قبل وفاته ببضعة أشهر . وشغل تاريخ هذه المراحل الأخيرة نحو مائة صفحة وهى من ٢٧٩ إلى ٣٨٤ من طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . أى ما يعدل حجم الكتاب كله فى وضعه الأول . ودعا ذلك مؤلفه إلى أن يستبدل بعنوانه القديم عنواناً آخر يدل على سعة ما عرض له وشموله لجميع مراحل حياته ، فسماه (التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب ورحلته غرباً وشرقاً) .

وقد قامت لجنة التأليف والترجمة والنشر المصرية بطبع هذا الكتاب فى أكمل صورة سنة ١٩٥١ ، بعنوان (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً

وشرقاً) ، وأضيف إلى هذه الطبعة تقدمة فى نحو ثلاثين صفحة ، وفهارس فى نحو خمس وسبعين صفحة ، وكثير من الحواشى والشروح والتعليقات فجاءت هذه الطبعة فى نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير، وقد كتب هذه التقدمة والحواشى والشروح والتعليقات ، وأشرف على نشر الكتاب ، وحققه ، وضبط كلماته بالشكل ، وعارضه بأصوله الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى .

وفى ظنى أن ابن خلدون بدأ طريقاً يأخذ به بعض الكتاب المحدثين الآن . فقد كتب فى أشياء كثيرة . وأبدى رأيه فى الممالك والدول والحضارات والملوك والحروب . لكنه آثر أن يرجىء الحديث عن نفسه ، بعد أن صقلت تجاربه ، وأصبحت له نظرياته المعروفة به فإذا به وهو على مشارف النهاية يفرغ للتأمل الداخلى ، والكشف الباطنى ، ويبوح عما لم يكن يبوح به من قبل . وقد فطن إلى ذلك الدكتور على عبد الواحد وافى حين نسب كتابه إلى أدب الاعترافات أو الترجمة الشخصية الذاتية . فعل شيئاً من هذا الدكتور لويس عوض فى (أوراق العمر) وصلاح عبدالصبور فى (على مشارف الخمسين) والدكتور سيد عويس فى ثلاثية (التاريخ الذى أحمله على ظهرى) وغيرهم وغيرهم . إنها رحلة إلى الداخل ، مصحوبة برحلة فى الخارج ، بدأها حقاً ابن خلدون .

هو «عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن خلدون بفتح الخاء » يقول عن نفسه « لا أذكر من نسبى إلى خلدون غير هؤلاء العشرة . وغلب على الظن أنهم أكثر وأنه سقط مثلهم عدداً ، لأن خلدون هو الداخل إلى الأندلس،

وهو من حضرموت باليمن ودخل جده إلى الأندلس مع الداخلين فى الفتح الإسلامى ، وينتهى نسبه إلى وائل بن حجر وهو من أقيال العرب ، وقد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبسط له الرسول رداءه وأجلسه عليه وقال : « اللهم بارك فى وائل بن حجر وولده وولد ولده إلى يوم القيامة » .

ولد بتونس فى غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة من الهجرة (٢٧ من مايو ١٣٣٢ م) . وقد كان والده عالماً جليلاً اشتغل بالفقه وعلوم اللغة والشعر . درس عبد الرحمن على يديه وعلى كثير من أساتذة عصره وعاش عل مساحة من العالم الإسلامى تمتد من المغرب والأندلس إلى القاهرة ودمشق ، وكان يمارس السياسة ، والسفارة ، والقضاء ، والشعر ، والتأليف . ألقى عصا تسياره بمصر فى ٧٨٤ هـ واستمر بها حتى ٨٠٨هـ ومنها رحل إلى بلاد عدة ، ثم عاد إليها ودفن فيها . ومن بين الرحلات التى قام بها من مصر (إلى الحجاز لأداء فريضة الحج – إلى فلسطين وزار فيها بيت المقدس – إلى دمشق مع السلطان الناصر تيمورلنك) . وانطفأ سراجه ، فى السادس والعشرين من رمضان سنة ٨٠٨ هـ .

وطبعى فى رحلة تهتم بالذات أولاً وقبل كل شىء ، أن نجدها تبدأ وقد شغل ابن خلدون فيها بالحديث عن نفسه ، بادئا بالنسب والنشأة ، والشيوخ ، والحالة الاجتماعية ، والروافد التى تلقى عنها العلم ، والظروف الاجتماعية والسياسية التى أحاطت به ، والدوافع الخاصة التى دفعت به إلى أن يرتحل من مكان إلى آخر ، ومن اصطحبه فى رحلته ، مذكراً ببعض المعلومات عنهم . وهو لا يكتفى بهؤلاء ، بل إنه يسرف فى الحديث عن

الشخصيات البارزة فى عصره ، فى أى مكان ، ومدى علاقته بها ، وارتباطه الوثيق جداً بأمورها ، وبخاصة إذا كانت هذه الشخصية تلعب دوراً مهما فى الحياة العامة أو فى حياته هو الخاصة .

وله طريقته فى تقديم الشخصية ، إذ إنه يعدد صنوفاً من المعلومات عنها ، وعن نشأتها ، وثقافتها ، من خلال تعريف بأساتذتها ، ثم موقعها من السلطة ، وصلته هو بها . أما إذا كانت الشخصية أدبية ممن يلعبون دوراً فى الحياة الثقافية العربية كابن الخطيب مثلاً ، فإنا نراه يعرض علينا نماذج من كتاباته ، ومراسلاته ، ومواقفه . وسواء أكانت الشخصية ذات حيثية سياسية أو قضائية أو اجتماعية أو أدبية ، فإنه لايفوته أن يسهب فى ذكر ما يلقاه من حفاوة هذه الشخصية ، وتكريمها ، بهدف جلاء منزلته عند الحكام والسلاطين والعلماء والأمراء . إنه يهتم كثيراً بهؤلاء لأنهم المعبر الذى يعبر من خلاله إلى المكانة المعينة التى يريد أن يصل إليها فى الإقليم .

ففى كل رحلاته نراه يبين المنزلة التى أصبح عليها فى الإقليم الذى نزل به . بل إنه يتولى مناصب عليا . وهذا يفسر لنا كيف أنه كان على علاقة وثيقة بالسلاطين الذين يحكمون البلاد التى يزورها . لذا احتشد كتابه بأخبار الملوك والولاة ، وكيفية توليهم الحكم ، أو تخليهم عنه «كان اتصالى بالسلطان أبى عنان آخر سنة ست وخمسين . وقربنى وآدنانى واستعملنى فى كتابته» . كما كتب عن أسرار السلطان أبى سالم وارسل إليه الرسائل . بل إنه سافر نيابة عن بعض السلاطين . مثلما سافر إلى المغرب نيابة عن السلطان أبى عنان الذى كان يجمع أهل العلم بمجلسه . ومما يذكره أيضاً أنه كتب فيهم الشعر الذى سجل مناسبات

بعينها ، ورحلاته متنوعة ، وتنقلاته من بلد إلى بلد آخر كثيرة ، ومن ثم كثرت الشخصيات فى رحلته وتعددت ، ومرجع ذلك إلى حرصه على الترجمة لذاته وعلاقاته أولاً ، وللترجمة لهؤلاء ثانياً ، والتعريف بأبعاد علاقتهم به أخيراً . وقد حرص على أن يسجل لكل من صادفه فى حياته الممتدة زهاء ستة وسبعين عاماً . ولما كان هذا الكتاب هو آخر ما خطته يراعه في حياته فإن لنا أن نتوقع رقته ورغبته الشديدة فى أن يضم كل من قابله ، وتتلمذ عليه ، أو بادله أطراف الحديث طوال عمره ، وحله وترحاله .

وينقل الأحداث من واقع الحياة السياسية ، ويصورها لنا فى صورة أدبية بليغة. ممزوجة برأيه ، وبيان دوره فى هذه الأحداث ، ومكانته العلمية العالية ، وأثره فى مجريات الأمور المتعلقة بالحدث . ولا يغيب عنه تسجيل رؤيته الحضارية للمكان الذى يقع فيه الحدث ، وتعليله لذلك ، فهو لا يكتفى بالنقل المباشر الآنى للحدث ، وإنما ينتقد الأحداث ، ويشخص الدواء اللازم لدائها . وخير دليل على ذلك ما أورده فى صفحات ١٤٥ ، ٣٧٠ ، ٤٠٧ من أحداث ، وتعليقه عليها . وما ذكره فى معرض حديثه عن رحلته إلى الأندلس ١٩٩ ، ورحلته إلى مصر ، التى يقول فيها : (.. فلما عزل القاضى المالكى – جمال الدين بن عبد الرحمن بن سليمان ابن خير المالكى – سنة ست وثمانين . اختصنى السلطان بهذه الولاية تأهيلاً لمكانى ، وتنويهاً بذكرى ، وشافهته بالتفادى من ذلك فأبى إلا إمضاءه ، وخلع على بإيوانه ، وبعث من كبار الخاصة من أقعدنى بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية بين القصرين ، فقمت بما دفع إلى من ذلك المقام المحمود) .

وعلاقة ابن خلدون بالمكان تبدو سطحية بالنسبة لتلك الأماكن التى تنتهى علاقته بها عند الرحيل منها إلى مكان آخر.

وهناك أماكن تربطه بها علاقة جذرية، إذا ما أقام فيها إقامة طويلة، وتلقى العلم بها، لأنها تسهم فى تكوينه الفكرى والعقلى والنفسى. وهناك أماكن تبدو العلاقة بها هامشية جداً يذكرها لنا عند المرور بها إلى مكان آخر دون إفاضة في الحديث عن معالمها الجغرافية، والتاريخية، والسياسية. إنه فى المرتبة الأولى مهموم بلقاء الحكام والأمراء ورجال الدولة من العلماء والشيوخ والوزراء والكتاب ، أما العامة والسواد الأعظم فإنهم لا ذكر لهم عنده. وإذا تصادف وورد ذكرهم فإنما ذلك يرجع إلى بيان ماهم فيه من جهل وسوء عيش. دون تحليل لأوضاعهم، ومعرفة أسباب ماهم فيه.

وأهم الأماكن بطبيعة الحال فى هذه الترجمة أو فى هذه الرحلة الداخلية الذاتية لابن خلدون «تونس». إنها مسقط رأسه، والمكان الذى تفتح فيه وعيه، ووجد فيه ضالته من الكتب والمؤلفات، واستوى فيه عوده. ثم تأتى «مصر» التى استقر فيها طويلاً، وتولى فيها القضاء، وإن كانت روحه قد تعلقت بالأندلس قبل حلوله بمصر؛ غير أن الوشايات التى أشيعت بينه وبين الوزير ابن الخطيب تسببت في قطع أواصر حبه وشغفه بالأندلس. وقد لعبت العواطف والعلاقات الإنسانية دوراً فى حياته، وفى كتابة رحلته.

تغلب ضعفه الإنسانى على رجل الدولة، وهو يلعب ألاعيبه السياسية الخطرة، حين خاطب شعراً أباعنان لإطلاق سراحه وقد سجنه

إذ ثبت تآمره عليه برغم ما ناله من إحسانه. كذلك فإنه يغرق في غمر من شعوره الإنساني وهو يهنئ السلطان عمر بن عبد الله - من سلاطين الموحدين سنة ٧٦٣- بالعيد، ويرجوه السماح له بالانطلاق إلى بلده في أفريقيا؛ وكان قد وقع بينه وبين السلطان شئ من الجفوة والإعراض لشعور ابن خلدون بأنه قصر فى حقه عما يسمو إليه، فأنشده فى قصيدة طويلة يتشفع فيها لديه بأهله وبناته، معلناً زهده فى طلب العلا والمجد يأساً من جموح الأيام وحرانها، ويتذلل له لغربته وضعفه تذلل المهيض الجناح، الكسير الخاطر. وهذه هى سمة من يشغلون بالسلطة، وينشغلون بالحكام .

وحينما لا يجد فى المكان شيئاً يعنيه هو بشخصه أو لذاته؛ فإنه قد يمر به مرور الكرام دون وقوف مطول، ووصف رقيق؛ وبيان وجلاء وتحقيق. فهو يحج بيت الله الحرام ويعود ولا يذكر شيئاً أكثر من طريق الذهاب والإياب، فلا يتعرض لوصف مكة أو الكعبة أو أى مشعر من مشاعر الحج. وكذلك فهو يزور بيت المقدس، وبيت لحم، ومدفن الخليل؛ فلا يقول شيئاً يشبع عن الحياة الإجتماعية أو الاقتصادية أو العادات والتقاليد والأطعمة والأشربة والملابس.

ويبقى أن نشير إلى تواريخ رحلاته، وهى على هذا النحو:

أولاً : الرحلة غرباً : إلى المغرب ٧٥٣هـ : ٧٦٤ هـ - إلى الأندلس ٧٦٤هـ : ٧٦٦ هـ - إلى بجاية ٧٦٦ هـ - ٧٦٧ هـ - إلى تلمسان ٧٦٧ هـ : ٧٦٩ هـ - إلى بسكرة ٧٦٩ هـ :٧٧٤ هـ - إلى المغرب الأقصى ٧٧٤ هـ : ٧٧٦ هـ - إلى الأندلس وتلمسان ٧٧٦هـ :٧٨٠هـ

المقام بتونس ٧٨٠ هـ : ٧٨٤ هـ.

ثانيا : الرحلة شرقاً : إلى مصر ٧٨٤ هـ : ٧٨٩ هـ – قضاء الحج بالحجاز ٧٨٩ هـ : ٧٩٠ هـ – المقام بمصر ٧٩٠ هـ : ٨٠٣ هـ – إلى الشام ولقاء ملك الروم ٨٠٣ هـ : ٨٠٣ هـ – العودة إلى مصر ٨٠٣ هـ : ٨٠٨ هـ.

وربما يكون ابن خلدون قد تصور أنه يدرس رحلته، فاستخدم أسلوب التدريس، فى الشرح والتفسير الدقيق لكل شئ. متوسلاً بضمير المتكلم. متأثراً بنهج القدماء فى قول الشعر. ملتزماً بالوزن والقافية. لم يخرج فى أسلوبه عن كونه أحد أئمة الأدب وأعلام البيان العربى. مع وضوح الفكرة والعبارة وحسن استخدام الألفاظ الدالة فى أماكنها الصحيحة. وجاءت الرحلة تعبيراً عن نفسه، وعن تجربته الذاتية المزوجة بكثير من المعارف والمعلومات عن البلاد التي رحل إليها طوال حياته؛ مما جعل لرحلته شخصية متميزة؛ بالإضافة إلى شخصيته هو عالماً اجتماعياً ومفكراً عربياً ذا منهج علمى ورؤية حضارية معروفة.

ولعل رحلة عبد الرحمن بن خلدون، وحياته، ألهما عدداً من الكتاب والمبدعين، كى يجعلوا من الرحلة بخاصة ومن شخصيته بعامة موضوعاً أدبياً. على نحو ما فعل احمد رشدى صالح حين ألف كتابه (رجل فى القاهرة) مستلهماً الرحلة والرجل معاً. وفى مقدمة كتابه يقول : (تصورت حياة «عبد الرحمن» فى القاهرة وبين يدى «رحلته» و «مقدمته» وبقية تاريخه والدراسات العلمية التى كتبت عنه. وأردت أن يكون تصويرى لهذه الحياة، رواية تاريخية، إطارها العام، وقائع التاريخ الثابتة ، ونسيجها الفنى تعبير

عما فى نفسى، من انطباع وتأمل. هذه إذن رواية أنا ناسج بنائها وأنا الذى اخترت أبطالها، ومهدت لهم مسرح الأحداث. حياة رجل مثل ابن خلدون تتسع للإبداع والتصور قدر ما تسع للبحث العلمى الدقيق).

كذلك فإن ابن خلدون فتح الباب على مصراعيه لعدد ممن اتخذوا ذواتهم موضوعاً لرحلاتهم؛ ولم يعودوا يكتفون بالخارج؛ بل سلطوا الضوء على «الداخل». أولئك وهؤلاء لم تقف مسيرتهم، ولم ينقطع مشوارهم. طال مسارهم، وكثر عددهم، وتنوعت أساليبهم، وتجاوزت رحلاتهم الآفاق. ونحن سوف نشير إلى بعضهم، وفقاً لما يسمح به المجال .

***

ذلك أنى أومن بأن دراسة أدب الرحلة تستلزم البحث فى كل رحلة على حدة. من حيث هى بناء فنى، وإبداع أدبى، له أسسه الخاصة، وملامحه الذاتية، التى تميزه من غيره من فنون الأدب الأخرى، التى قد تشترك معه فى بعض الخصائص والسمات. هذا هو المنطلق الذى ينبغى أن تنطلق منه أية دراسة موضوعية لهذا اللون من الأدب. فنحن عندما نتعامل مع هذا الأدب بأعتباره «شكلاً» فنياً خاصاً؛ خير ألف مرة من التعامل معه باعتباره تسجيلاً جغرافياً؛ مما قد يخرجه من دائرة الأدب أصلاً.

وهذا يتيح لنا فرصةاستكناه كل عمل، وجلاء ما يتميز به، وما أضافه. كما يسمح بالمقارنة بين الأعمال المختلفة. بل إنه يكشف عن الاتجاهات المتباينة لأدب الرحلات؛ وفقاً لما تتضمنه كل رحلة. وهو ما يستدعى تصنيفاً موضوعياً للرحلات، ودراسة فنية لها فى ضوء هذا

التصنيف. وهنا سوف يدع الباحث جانباً ما أشيع من أن معظم ما كتبه العرب فى هذا الجانب أدب جغرافى، كما قال بذلك بعض الباحثين الروس. وهذا المصطلح تلزم دراسته، وتحديد مفهومه، ودلالته، والانتهاء من صياغة موقف علمي منه، من قبل كل من يتعرض للكتابة عن أدب الرحلة.

وعندما ينتهى الدارس أو الباحث من تحديد موقفه من المصطلح، يبدأ فى تحديد رؤية الكاتب - الرحالة. وما كان يستوقفه ويلفت نظره ويقف عنده طويلاً. هل كانت تشغله الجوانب الحضارية ومعالمها كالآثار والمعابد والمتاحف والمساجد والكنائس والأماكن التاريخية ؟ فيصفها وصفاً مطولاً، ويستطرد فى ذكر كل ما يتصل بها من تواريخ، وأعلام، ووقائع ؟ أم كان همه الأوحد هو وصف الأماكن من حيث موقعها الجغرافى، وما تتسم به؛ وفيم تتشابه وفيم تختلف، وتأثير العوامل الطبيعية، وما شابه ذلك.

وقد رأينا أن من الرحالة من كانوا يستهدفون الاتصال بالسلطان أو الحاكم؛ فيشغلون به عمن عداه. وأن هناك من كان يحرص على لقاء العلماء، ورجال الدين، ومجالس العلم، فى البلدان التى يمر بها في رحلته. وكان ذلك يستغرق كل وقته؛ فيعطيه مساحة كبرى داخل النص المكتوب - نص الرحلة. ومسألة موقف الكاتب من الطبقات الاجتماعية، ومن الناس العاديين الذين كان يصادفهم. نظرته إليهم. دراسته لأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية والفكرية . اقترابه من إدراك أفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم ، ومعرفة وسائل معيشتهم وطرق حياتهم اليومية . هذه مسائل تلزم دراستها - جميعا - عند التصدى لموضوع الرحلة فى أدبنا العربى .

وقد يستتبع هذا بيان عنصر الصدق وجلاء الحقيقة أين تكون ؟

أحداثا ووقائع وأماكن وأناسي . وما هو دور الخيال، إذ ربما تكون الحقيقة جانباً هامشياً وتترك «الخيال» كي يلعب أهم الأدوار.

ويلعب مدون الرحلة أو راويها دوراً هو الآخر. فصاحب الرحلة، فى بعض الأحيان كما رأينا، لم يكن يقوم بكتابتها بنفسه، إذ كان يمليها أحياناً؛ أو يرويها لمن يقوم بإملائها أحياناً. وفى الحالين هناك كاتب لرحلة ليس هو صاحبها بطبيعة الحال. وقد عرفنا أن السلطان أباعنان سلطان فاس وفر لابن بطوطة محرراً أديباً من كتاب ديوانه هو «ابن جزى» ليقوم بتدوين رحلة ابن بطوطة. وهذا يقتضى تحليلاً معمقاً لبيان دور كاتب الرحلة أو مدونها. واستخلاص خصائص أسلوبه إن كانت له بصمات واضحة. وذلك لتحديد سمات وملامح أسلوب صاحب الرحلة ذاته، ولن يتأتى ذلك إلا بدراسة نقدية لكتابات كل منهما، فى ميادين آخري.

أما من حيث البناء الفنى للرحلة، أو معمارها الفنى؛ فإن أحداً من الدارسين السابقين لم يلتفت إليه. إذ إن لكل «بداية» «ونهاية» . كيف جاءت «البداية» وكيف وفق الكاتب إلى «النهاية» ؟! وهل هى نهاية فنية أم إنها نهاية تقليدية ، حكمها عنصر الزمن، والفترة المحددة للرحلة . هل هى نهـاية طبيعيـة أم مفتعلة ؟ . وعنصـر «التشـــويق» فى كل من «البداية» و«النهايه» .

وليس من شك فى أن كل رحلة حفلت بعدد وافر من الشخصيات، من مستويات اجتماعية وفكرية واقتصادية مختلفة. كيف تعامل كاتب الرحلة مع هذه الشخصيات ؟ وأى نوع من البشر حرص على تقديمه فى رحلته ؟. وكيفية معالجته لهذا الجانب: وصفه للشخصية. تحريكه لها، دور

الخيال في هذه المعالجة. هل كل الشخصيات فى الرحلة مستمدة من الواقع الـذى رآه ؟ وعاشه ؟ واحتك بـه، وتعامل معه ؟!. أم انه اكتفى- فقط - ببعض من صادفهم، ثم صور من وصفوا له، أو سمع بهم، من قبل آخرين ؟. بمعنى : هل نبعت الشخصيات عنده من مستويين مختلفين. المستوي الأول واقعى ناجم عن رؤية ومعايشة؛ والمستوى الثانى مستمد من معايشة الآخرين، ومن السماع ليس غير ؟!

كذلك الحال بالنسبة لوصف الأماكن، وتدوين الوقائع، والأحداث. ثم دور «المرأة» فى كل رحلة مكتوبة بشكل أدبى. ودور «الزمن» كعنصرمهم فى كل رحلة من الرحلات. ولابد من دراسة مستويات «اللغة» فى السرد والوصف. هل تختلف لغة الكاتب عند لقاء السلاطين والحكام ورجال الدين، ورجال الجمارك، والعامة، أم أنها تسير على وتيرة واحدة فى كلٍّ ؟! وللشعر فى معظم الرحلات التي بين أيدينا وجود ملحوظ. وبخاصة تلك التى كتبت فى العصور المتقدمة. أما الرحلات التى كتبت حديثاً فإن الشعر لا يلعب دوراً على الإطلاق.

وهذه ظاهرة ينبغى أن تلفت نظر الدارس؛ مما يدفع إلى الوقوف عند «الوجود الشعرى» في الرحلة. بقصد دراسته، ومعرفة مصدره، وإلى أى حد جاء «الشعر» منسجماً مع بقية العناصر الفنية فى الرحلة؛ بحيث يأتى البناء الفنى الكلي للرحلة مستقيماً ومتماسكاً. وثمة تساؤل يلزم الإجابة عنه : هل الشعر الموجود من تأليف كاتب الرحلة وصاحبها الأصلى أم إنه من تأليف غيره ؟ ولماذا استشهد به ؟ وكيف جاء الاستشهاد ؟ وهل كان موفقاً فيه أم لا ؟ إلى غير ذلك مما يثيره «الشعر»

عنصراً موجوداً فى البناء العام للرحلة؛ استشرافاً للحكم على «الوحدة العضوية» للرحلة عملاً أدبياً فنياً.

ولا يفوت دارس هذه الكتابات الأدبية التى تدور حول «الرحلة» جانب «المقارنة» : مقارنة أساليب الكتاب، واتجاهاتهم، ووسائلهم الفنية، وأدواتهم التي استعانوا بها؛ وصولاً إلى تبين الملامح الفنية الأساسية لهذا اللون من الكتابة الأدبية. وبحثاً عن مواضع التأثر والتأثير. وبياناً للمراحل الفنية التي مر بها هذا الشكل الأدبي. وكشفاً للملامح الجديدة. ومعرفة الإضافات التي أضافها الكتاب المحدثون. وهذا هو ما سوف نجتهد في الإشارة إليه في الصفحات القادمة؛ آملين أن يقبل الباحثون والدارسون على تأمل المكتبة العربية الحافلة بكتب الرحلة، ودراسة جوانبها المتباينة، فى ضوء الملاحظات التى أبديناها وحددناها.

إيمانا منا بأن هذا اللون من الأدب العربى أصبح يشكل جانباً مهماً فى مكتباتنا العربية؛ منذ تلك الرحلة التى قام بها «أبو الحسن محمد ابن جبير» الكتانى الأندلسى، ليحج بيت الله الحرام؛ فى الثامن من شوال سنة خمسمائة وثمان وسبعين للهجرة، وهى الرحلة التي استغرقت سنتين وثلاثة أشهر ونصف. إنها فتحت الباب للكثير ممن جاءوا بعد من الرحالة والجوابين؛ كى يقدموا على كتابة رحلاتهم بشكل أدبى. وقد كانت الحصيلة مكتبة كاملة تراثية ومعاصرة؛ لأن الأدباء المعاصرين فى كل الدول العربية أسهموا لتدعيم هذه المكتبة، وللإضافة إلى هذا اللون من الأدب.

***

اتجه رفاعة رافع الطهطاوى فى رحلته إلى باريس؛ حيث الحضارة

الأوربية. ومعظم الذين جاءوا بعده في العصر الحديث صوبوا أنظارهم إليها، وراحت عيونهم تتجه نحوها. ولم يكن هدفه - بطبيعة الحال - إلا أداء وظيفة المشرف الدينى على طلبة البعثة العسكرية التى بعث بها محمد على إلى هناك. فأتيح له هو مالم يتح لأعضاء البعثة. أتيح له التأمل فى مظاهر الحياة فى باريس. وكان قد جال فى فلسطين، وتركيا، وأقام طويلاً فى دمشق. وطالما تحدث عن المدن حديثاً شخصياً ممتعاً. ولم يكن فى تلك الجولات محتاجاً لتعلم لغة ثانية كي يتعرف إلى معالم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية. ولكنه - هنا - أدرك أنه في أشد الحاجة إلى تعلم اللغة الفرنسية؛ كي يفهم مالم تستطع العين رؤيته، ولا المعايشة إدراكه.

هذا الشيخ المجبب المعمم، الأزهرى؛ لم يسع للقاء الحكام، ولم يؤد فريضة الحج؛ وإنما حرص على نقل صور الحضارة الحديثة، مقارناً بينها وبين الحضارة العربية الإسلامية. وكان أستاذه الشيخ حسن العطار قد غرس فيه حب الرحلة ووصف البلاد. أضاف هو إلى ذلك لقاء العلماء والمفكرين والأدباء، حتى تكتمل الصورة وحتى يقارن بين ما يكتبونه وبين ما يمارسونه فعلاً. وكان كتابه (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) شكلاًجديداً من أشكال المواجهة. ولوناً من ألوان الكتابة عن موقف الكتاب والأدباء في الشرق العربى الإسلامى، من الحضارة الغربية الأوربية. سوف يتطور - بعدئذ - ليعالج - روائياً - عند طه حسين في (أديب) ١٩٣٥، وتوفيق الحكيم فى (عصفور من الشرق) ١٩٣٨، عند يحيى حقى في (قنديل أم هاشم) ١٩٤٤، وسهيل إدريس فى (الحي اللاتينى) ١٩٥٤، والطيب صالح فى (موسم الهجرة إلى الشمال) ١٩٦٥، وسعدى إبراهيم

فى (المرفوضون) ١٩٨١، ومحمد جلال في (حب في كوبنهاجن) ١٩٨٠.

أدرك رفاعة رافع الطهطاوى التناقض الصارخ بين بيئته وبين البيئة التى انتقل إليها؛ فأراد بكتابه أن يلفت أنظار مواطنيه إلى التقدم العلمى فى أوربا، وإلى ضرورة اهتمامهم بهذه العلوم. والكتاب - الرحلة لا يقف موقفاً متصلباً مضاداً من العلوم الغربية، ومن مجتمع باريس المتحضر. وموقفه من المرأة الأوربية واضح كل الوضوح، وإن كنا نلاحظ أنه لا يتردد فى الإعلان عن إعجابه بما رآه من تقاليد صالحة. لم يتوان بعد عودته من المطالبة بحقوق مماثلة لبنت بلده، لا تختلف عن تلك الحقوق التى تتمتع بها المرأة الفرنسية.

والكتاب عبارة عن مقدمة، ومقصد، وثلاث مقالات. لا يتتبع فى الجزء الثانى بالتسلسل الزمنى. وإن كنا نراه فى الجزء الأول يلتزم بذلك؛ أي منذ خروجه من الإسكندرية، ومروره بمرسيليا حتى وصوله إلى باريس،ثم يقسم حديثه عن باريس تقسيماً علمياً؛ خاصاً بالجغرافيا، وأخلاق أهلها، ونظام الحكم فى فرنسا بعامة، ومنازل الفرنسيين؛ واهتمامهم بالأمور الطبية. وينقل بعض مواد القانون الفرنسى بعد ترجمتها عن طريقه هو. مما قد يدل على أنه فى بعض ماكتبه لا يعبر عن مشاهدات حقيقية وقعت عليها عينه؛ وإنما كان سرداً لمعلومات قرأها فى الكتب وترجمها ثم نقلها.

ومما يحمد لصاحب هذه الرحلة أنه وجد فى نفسه الجرأة علي الأعتراف بتقدم الغربيين؛ برغم كونهم لا ينتمون إلى الإسلام. وطالب بالأخذ بوسائل حضارتهم الحديثة؛ بطريقة تعليمية بحتة؛ وبأسلوب أدبى

كان سائداً ومنتشراً. وهو غلبة السجع، الذى لم يفلت منه عنوان رحلته.

كذلك كان هدف احمد فارس الشدياق فى رحلتيه اللتين سجلهما فى كتابيه(الواسطة فى أحوال مالطة) و (كشف المخبأ عن فنون أوربا). كانت رحلته إلى مالطة بدعوة من الأمريكان له فى عام ١٨٣٤ للتعليم فى مدارسهم في تلك الجزيرة. أما الثانية فإنها جاءت بدعوة من جمعية (ترجمة الأسفار المقدسة) إلى إنجلترا ليسهم فى ترجمة التوراة إلى العربية؛ وكان ذلك سنة ١٨٤٨. وهو فيما يرويه عن نفسه فى ترجمته الشخصية ولوع بالرحلة، راغب فى التنقل؛ يجد فيها فائدة ومتعة وعلماً. ويجد فى نقل تجاربه فى الرحلات ثقافة وخيراً لأبناء وطنه وقومه. أقام فى مالطة أربع عشرة سنة؛ وفى كل من لندن وپاريس تسع سنوات.

ومما يرويه الدكتور لويس عوض عنه أنه كان فياض الحركة، كثير التنقل، لاذع السخرية، كثير الصدام بالناس. يحمل معه أينما انتقل مشاكله الخاصة، وآراءه، ومعتقداته الشخصية، ومسلماته الموروثه وغير الموروثة. وربما كان أهم ما يشغله مشاكله الفردية، وما يتصل بالأخلاق الدينيه. وتوجه فى سخريته وهجائه نحو الرهبان والمنافقين من رجال الدين. وله ستة كتب إلى جانب رحلتيه.

فى رحلته إلى مالطة؛ وصف الجزيرة جغرافياً وتاريخياً واجتماعياً؛ وتحدث عن عادات أهلها وأخلاقهم ولغتهم، ولم يغادر صغيرة أو كبيرة فيها إلا وأشار إليها؛ حتى إنه وقف عند أرضها وجوها فى فصل أسماه «هواء مالطة ومنازلها وغير ذلك». وهو في كتابه عن أوربا

وصف عوائد أهل أوربا، وبخاصة الانجليز والفرنسيين، ومتاحف لندن وباريس، والآثار الفنية والحضارية. وصرح بأنه اختصر كثيراً فى وصف باريس لأن رفاعة رافع الطهطاوى قد سبقه إلى وصفها بشكل مطول. لكن المرأة الأوربية شغلته طويلاً، فوصف سلوكها الذى يرضاه، ونقد عاداتها التي لا يوافق عليها. من ذلك أنه يكره في نساء الإفرنج عموماً تربية أظافرهن، فى حين يحمد للمرأة الإنجليزية بخاصة أنها لا تستخدم الأصباغ والألوان ولا تزجج حاجبيها. فكما خلقهن الله يبديين ولا يتباهين بكثرة الحلي والجواهر.

ويقارن بين احتفاء الرجل الفرنسي بالمرأة الفرنسية، وقلة احتفاء الرجل الانجليزى بالمرأة الانجليزية التي تحترم زوجها وتخضع له. في حين تزهو المرأة الفرنسية على الرجل وتدل عليه. ويشير إلى أن المرأة الانجليزية فى غاية التقشف والقناعة؛ إذ إن أقل شئ من الملبوس يرضيها ومن الطعام يكفيها ولا تستخدم الدخان والنشوق؛ كالمرأة الفرنسية. ويشيد بنظافة المرأة الانجليزية، وتدبيرها، ووفائها، وحرصها علي أن تضفى على الأسرة جواً من الهناء؛ رغم أنها لا تجيد الطهو ولا الحياكة ولا التطرين. وغير ذلك كثير من أمور الحياة، والواقع؛ إذ إن الفترة التى عاشها فى مالطة من ناحية، وفى التنقل بين إنجلترا وفرنسا من ناحية أخرى كانت كافية لأن تتيح أمامه فرصة معرفة الدقائق، والمقارنة بينها.

وعلى عكس ما أشيع عنه من أنه لم يكن يمعن النظر جيداً ويعمل عقله فيما يقرأ أو فيما يسمع؛ فإنه كان ميالاً إلى التحقيق والتوثيق. فقد قرأ لأحد المؤلفين الأوربيين أن أهالى مالطة يربون دود الحرير؛ «وقد علم

بالتجربة أنه يتحصل منه حرير أعلى من حرير إيطاليا»؛ لكنه لم يرض عن هذا القول ورد عليه بقوله: «قلت وقد علم بالتجربة أيضا أن دود القز لا يعيش فى هذه الجزيرة، والمؤلف إنما كتب هذا عند الشروع فى تربية التوت». معنى هذا أنه كان يحاول تحليل الأمور، ويصفها بدقة، حتى لا تضيع الحقيقة ويضل القارئ الذى يريد أن يرتفع بمستواه الثقافى، ويعلمه العلم الصحيح.

ولغة الشدياق في رحلاته لغة سهلة؛ لأنه كان يريد لها أن تصل إلى قاعدة قارئه. لم ينس هدفه فى «منتهى العجب فى خصائص لغة العرب». كان المعنى يقود إلى معنى ثان وثالث ورابع وهكذا. وكان يتتبع الموضوع الواحد فى جزئياته المتنوعة مع مراعاة الفكرة الأصلية التى سرعان ما يعود إليها. لم يخضع لقيود اللغة في هذه الكتب التى تتوجه إلى قارئ يصل بينه وبين ذات نفسه؛ فلا يحول بينهما حائل. وبخاصة أنه استخدم السجع والمحسنات في كتاب آخر هو «الساق على الساق فيما هو الفارياق».

عربى يأتى من أمريكا إلى البلاد العربية؛ في الوقت الذى غلب الاتجاه إلى الغرب وأوربا على الرحالة. كانت رغبته الأولى السياحة؛ لكنها سرعان ما تحولت إلى الدعوة والسياسة والوحدة. فقد نشأ أمين الريحانى فى لبنان وهو لا يعرف عن العرب شيئاً؛ ولما ارتحل إلى أمريكا اطلع هناك على تاريخ العرب، وحضارتهم، ولغتهم، وعاداتهم، حتى اصبح يراوده الحلم فى السفر والطواف ببلاد العرب. لكن حالت دون ذلك الحرب العالمية الأولى؛ فما أن انجلت حتى تحول معنى السفر عنده من مجرد

رغبة فى السياحة وفى الاطلاع؛ إلى رغبة أصيلة فى العمل على جمع كلمة العرب، وتصفية قلوب الملوك والأمراء؛ تمهيداً لتحقيق الوحدة العربية. فودع زوجته عام ١٩٢٢ فى نيويورك، ومضى إلى البلاد العربية بادئاً رحلته الأولي من أمريكا إلى شبه الجزيرة العربية.

وصل إلى الجزيرة العربية عن طريق مصر؛ وأخذ يطوف أرجاءها عاماً وشهرين، وزار كلاً من الحجاز، واليمن، وعسير، ولحج، ونجد، والكويت، والبحرين، والعراق. صحبه فيها صديقه «قسطنطين ينى». وكان كتابه «ملوك العرب» الذى فرغ من تأليفه ١٩٢٤ ثمرة هذه الرحلة. والكتاب يقع فى جزأين. يتحدث فى الجزء الأول عن الملوك، والحكام، الذين اتصل بهم، والغاية التي سعى من أجلها في البلاد العربية. ذاكراً دور الإنجليز فى التفرقة بين الحاكمين العرب، وتحريض بعضهم على البعض الاخر. وأشار إلى الصعوبات التى صادفها فى سبيل الوصول إلى هذه البلاد، والاتصال بحكامها. وعرض لحياة السكان وعاداتهم وأحوالهم، وتاريخهم القديم والحديث. وفى نهاية الجزء الثانى تناول الوضع السياسى فى العراق، وبعض حديث عن النواحي الأدبية والثقافية ، ثم كان الختام حديثاً عن الوحدة العربية وإمكان تحقيقها.

قدم لكل فصل من فصوله بلمحة جغرافية عن البلد الذى يتحدث عنه، ذاكراً حدوده، ومساحته، وعدد سكانه، وأهم القبائل، والمذهب السائد فيه. ومما يقوله عن عدن: «.... مدينة عمومية، لا أوربية ولا شرقية ولا عربية. مدينة التجارة والفحم والمضارب العسكرية. هى من الوجهة الحربية جبل طارق الشرق. ومن الوجهة التجارية مركز توريد وتوزيع مهم فى

البحر العربى. ومن الجهة البحرية العمومية هي مستودع فحم لبواخر العالم التى تجرى بين الشرق والغرب. وهى فوق ذلك وقبل كل ذلك المستودع الثالث للبواخر الإنكليزية في الطريق بين الجزائر البريطانية والهند.».وعند الوصول إلى تهامة نجده يتحدث عن نسائها. ويجمع بين القديم والحديث، والجغرافيا، والدين، والاجتماع، والسياسة، والآثار، والبحوث العلمية.

وقد جاء وصفه للأشياء والأماكن والاشخاص دقيقاً، مستنداً إلى الاختبار الشخصى، والمشاهدة الواقعية. مع قدرة على النفاذ إلى جوهر القضايا التى تناولها نفاذاً أمكنه من إلقاء الضوء على كثير من المظاهر فى البلدان العربية، وتفسيرها التفسير الذى لا يستند إلى النظر الخارجى السطحى. بمعنى أنه كان يتحرى الدقة، ولا يستسلم للرأى دون غربلة وتمحيص والتأكد من مدى صحته. فقد التزم بتجلية فكرة واحدة رافقته في رحلاته؛ وهى فكرة النهوض بالشعب العربي، وتوحيده، ونفض غبار الكسل عنه، والسعى لتحقيق ذاته كشعب له حق الوجود الحر والحياة الكريمة.

وهكذا بدأت الرحلات تتجه نحو هدف قومى سياسى، وتلتزم بخط عربى، لا يخفى الكاتب أيا منهما. فى أسلوب حي، وسرد سلس، يغلب عليه التهكم والسخرية في بعض الأحيان. ولم تختف صورة المرأة عن هذه الرحلة؛ مما يدل دلالة واضحة على أنه إذا كانت صورتها قد اختفت تماماً فى كتب الرحلة القديمة فإنه مع بدايات العصر الحديث؛ أخذت ملامحها في الظهور، والسفور؛ شيئاً فشيئاً؛ سواء أكان هدف الرحلة تعليمياً أم سياسياً، حضارياً أم تسجيلياً، عربياً أو أوربياً.

هل نستطيع فى هذا الإطار أن نشير إلى بعض الرحلات التى لم تحدث في الحقيقة والواقع؛ وإنما تصور أصحابها أنها حدثت؛ ولأشخاص ليس لهم وجود فى الحياة ؟ إن الإقبال الملحوظ من الكتاب والرحالة على تدوين رحلاتهم إلى خارج العالم العربى؛ أو إلى داخله؛ جعل بعض الأدباء يكتبون أعمالاً أدبية على شكل «رحلة» قام بها أبطال أعمالهم أو رواياتهم. مثال ذلك ما كتبه محمد المويلحى فى (حديث عيسى ابن هشام) ١٩٠٥. لقد كتب رحلة، اتخذت مجالها فى الداخل، وارتبطت ارتباطاً كبيراً بالمجتمع الذى تدور فيه؛ وهو المجتمع المصري. ذلك أنه استمد صوره من واقع مجتمعه، بهدف النقد الاجتماعى أولاً؛ وتعليم اللغة العربية بعدئذ. وينحصر الأبطال الرئيسيون في «عيسى بن هشام» وهو الراوى أو المؤلف نفسه؛ والباشا التركى الذى بعث من قبره ليدرك مظاهر الاختلاف والتناقض بين مجتمعه القديم والمجتمع الجديد. إنها رحلة في الداخل وليس إلى الخارج؛ قام بها أشخاص متخيلون؛ ابتدعها أديب ذو حس دقيق ويقظة، أراد أن يقول من ورائها كلمات كثيرة.

يتفق معه فى ذلك الشاعر المصرى الكبير «حافظ إبراهيم» في (ليالى سطيح) ١٩٠٦. صور رحلة داخل المجتمع لكي يتمكن خلالها من انتقاد أوضاع هذا المجتمع. وإذا كانت هنالك رابطة داخلية بين فصول رحلة (حديث عيسى بن هشام) فإن (ليالى سطيح) قدم فى حلقات منفصلة. ولما كان الاثنان أديبين معروفين فإن كلاً منهما جعل للصياغة الأدبية؛ وللغة، مكانة عظيمة في رحلته، ولم يكونا قد تخلصا تماماً من بعض القيود والأسوار، لأنهما يشتغلان بها. فى حين أن معاصريهما من بعض الرحالة قد تخففوا من أسر هذه القيود؛ وتخطوا تلك الأسوار.

هناك رحالة حقيقى لا نجد له ذكراً فى كتب الرحلة هو احمد محمد حسنين، الذى دون رحلته فى كتاب بعنوان (فى صحراء ليبيا)، والكتاب يقع فى مجلدين: الأول وعدد صفحاته ٢٠٥، والمجلد الثانى وعدد صفحاته ٤٠٦. ينتهى المجلد الأول عند «واحة الكفرة» وما سجله علمياً عنها؛ ويتضمن المجلد الثانى اكتشاف واحتى «أركنو والعوينات» وباقى الرحلة إلى دارفور وكردفان ومزيلا. ثم تقرير طبوغرافى عن الرحلة بقلم الدكتور بول مدير قسم المساحة للصحراء بمصلحة المساحة المصرية، وتقرير چيولوچى بقلم الدكتور هيوم، مدير قسم الچيولوچية المصرية. وقد طبع الكتاب بمجلديه في مطبعة مصر سنة ١٩٢٦ طبعة واحدة.

وثمة تعريف موجز لصاحب الرحلة «احمد محمد حسنين» البولاقى ١٨٨٩ – ١٩٤٦ المولود بالقاهرة، والذى تلقى تعليمه بها، ثم باكسفورد؛ ولما عاد إلى القاهرة تقلد عدداً من المناصب؛ حتى أصبح رئيساً للديوان الملكى. وتوفى بالقاهرة سنة ١٩٤٦. ويقدم أحمد لطفى السيد– مدير الجامعة المصرية آنذاك الرحلة، مبيناً قيمة السفر والترحال، ولذته، والحصول على الرضى النفسي (فرحلة أحمد بك حسنين هى فوز يكاد يكون فريداً في تاريخ الاستكشاف الجغرافى، وجاءنا بنماذج چيولوچية وجغرافية وصور فوتوغرافية) يضم الجزء الأول أربعة عشر فصلاً يتناول فيها وضع خطة الرحلة، والزاد والمتاع، والتفاؤل والتآمر، والبحث عن الصحراء، والسنوسيين، وجغبوب الهادئة، والولائم، والأدوية، وزوابع الرمال، وجالو، الطريق إلى بئر الظيغن، اختلاف مناظر الصحراء وإصلاح الخريطة، الكفرة؛ ويتضمن الجزء الثانى موضوعات مختلفة، تاريخية وجغرافية وفلكية، والطرب والغناء والرقص وحداء الإبل والآثار

والنقوش التى شاهدها والحيوانات كالأسود والزراف والنعام والغزلان والبقر. ثم دخوله السودان، ووصفه الطبيعة فيها والنبات والحيوان، وتنتهى الرحلة بمروره على قرى صغيرة؛ لا ينسى وصف مظاهر حياتهم؛ وتأخذ الرحلة نهايتها بركوبه القطار من الخرطوم إلى القاهرة (فوصلتها فى أغسطس سنة ١٩٢٣؛ وكنت قد غبت عن وطنى سبعة أشهر و٢٣ يوماً، وقطعت بالقافلة مسافة ٣٥٠٠كم فى الصحراء وأمكننى بواسطة هذه الرحلة أن أقطع فى تحديد مركز آبار الظيغن ومكان الكفرة على خريطة افريقيا ونلت كذلك توفيقاً عظيماً فى إثبات الواحتين المجهولتين اركنو والعوينات على خريطة صحراء ليبيا)

واعتمد الكاتب على الوصف اعتماداً أساسياً. فهو يصف كل شئ: ظلام الصحراء فى الليل وسكونها وحلول الصباح. أمتعة الرحالة فى الصحراء واللباس البدوى. قرب الماء والزمزميات والخيام وصندوق المواد الطبية. الأسلحة وأجهزة التصوير وأشرطة الأفلام السينيمائية. مسجد الجغبوب. حب البدوى لجمله. عبيد التبو. مظاهر عاداتهم وأشكالهم وحياتهم. مظاهر الحياة في جالوا وأعمال السكان وعاداتهم الاجتماعية وأسواقهم. مظاهر الحياة في الكفرة وأوضاع العبيد فيها. إلى جانب عدد كبير من الصور التى تستهدف تشويق القارئ حتى يتمكن من متابعة الرحلة، ليزيد من معلوماته بشكل مركز ودقيق. إذ إنه كان يرغب في الاستكشاف والعلم؛ فهى رحلة علمية تتخللها عناصر التشويق والجذب من طرائف ولطائف وصور ومشاهد وحكايات يقول: (وقد كانت الغاية الأولية من رحلتى هذه علمية ولكنى حاولت في هذا الكتاب أن اتجنب إرهاق القارئ بذكر المصطلحات الفنية وأن أقدم إليه حكاية أرجو أن تكون شائقة)

ودور السلطات الحاكمة في هذه الرحلة ملحوظ. ففى الصدارة تطالعنا صورة ملك مصر. ثم يقول إنه منذ فترة طويلة كان موفداً إلى السيد/إدريس السنوسى شيخ الطائفة السنوسية التى مقرها واحة الكفرة سنة ١٩١٧؛ وفعلاً ذهب إليها فى رحلة قصيرة ١٩٢١ ثم عاد إلى القاهرة. وفى ١٩٢٢ تشرف بعرض رحلته مخترقاً الصحراء من البحر المتوسط إلى السودان على حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول؛ فأصدر أمره إلى الخزينة المصرية بمنحه جميع النفقات التي تتطلبها الرحلة. وحديثه عن كرم الوفادة ممن يقابلونه في الصحراء لا ينقطع. كذلك حديثه عن لقاء الحكام والأمراء. إنه منذ بداية الرحلة إلى نهايتها ينتقل، ويرى، ويسجل، ويصور، فى كنف الحكام وفى ظل رعايتهم. مع أنه كان يصطحب معه رجلين هما: عبد الله، أحمد؛ أولهما نوبى من أسوان والآخر أسواني، وكان كلما حل فى مكان اصطحب معه أحد أبناء المكان مرافقاً له أو دليلاً له في سفره. كما يلتقى بمسئولى الحدود المصريين.

ورغم عدم اشتغاله بالأدب فإنه اجتهد فى أن يرسم بقلمه صورة عن الصحراء بكل ما فيها. واستعان ببعض الآيات القرآنية؛ وإذا ما استخدم لفظاً غريباً أو شعر بأنه غير مألوف فى اللغة العربية وضعه بين قوسين. كما أنه توسل ببعض الكلمات العامية. واحتفلت الرحلة أيضاً ببعض لهجات البدو؛ وأشعار خاصة بهم. وهو لم يدون رحلته إلا بعد العودة النهائية. ونلاحظ أنه بدأ يكتب رحلته سارداً ما يريد أن ينقله للقارئ؛ ثم أخذ فى التسجيل اليومي للأحداث. وقد بدأ هذا مع أحداث يوم ١٨ مارس ١٩٢٣.

كان الجمل هو الوسيلة الأساسية التى استخدمها احمد محمد حسنين في رحلته، وظل يستأجر الجمال من الأسواق طوال مدة السفر، ثم استخدم الباخرة في الوصول من الأسكندرية إلى السلوم؛ والقطار من الأبيض إلى الخرطوم.

أما الرحالة احمد حسين فى كتابه (من وحى الجنوب) فإنه سلك طريق النيل بواسطة باخرة، أراد أن يكون السير مع النهر صعوداً لا هبوطاً؛ فهو لا يريد أن يتدرج من الصحراء المحرقة إلى منطقة السافانا المورقة؛ بل يريد أن يجعل من خط الاستواء ذروة رحلته. بدأ من ميناء «كوستى» على النيل الأبيض على بعد ٢٥٧كم جنوب الخرطوم، وانتهاء بمنطقة «جوبا» فى أقصى الجنوب، وعلى حدود الكونغو. وهو ما أسماه بالصعود أي السير ضد تيار المياه وانحدارها صوب الجنوب على ظهر الباخرة النيلية «الرجاف»؛ وختمها منحدراً بالطائرة إلى حيث بدأ؛ ثم عاد أدراجه إلى الخرطوم فى سويعات. بيد أن سفره بالباخرة استمر خمسة عشر يوماً؛ منذ أول أبريل ١٩٥٦، حتى ١٥ من أبريل ١٩٥٦.

والكتاب يقع في ٢٢٩ صفحة. طبعته دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨. يهديه إلى من ربطته بهم صلات قربى ورحم قوية، مثل زوجته، وروح أخيه الشهيد مصطفى الوكيل. وهو يقوم برحلته (خضوعاً لنداء خفي وعاطفة غامضة تسيطر عليّ هى أن أرى النيل فى منابعه الأولى؛ لأكون جديراً بانتسابى إلى النيل وأسرته)، ويعلن أن هذه هى أمنيته منذ زمان بعيد، «أنا الذى أحببت مصر والسودان الحب كله، أن أقوم بهذه الرحلة صاعداً فى النهر نحو أعاليه من منابعه الأولى». ولعل السبب فى

ذلك يرجع إلى أنه حرم من وطنه بسبب الاستعمار الإنجليزى للسودان، وأنه كان قد زاره سنة ١٩٣٨ بعد ما حصل على تصريح دخول، ويبدو أن الإنجليز ندموا على سماحهم له بتلك الزيارة ندماً شديداً حتى إنه لم يستطع الدخول إلى جنوب السودان، «فقد كانت منطقة مقفولة ومحرمة لاعلى المصريين فحسب، بل وعلى السودانيين أنفسهم، وهكذا ظلت هذه الأمنية خيالاً بعيد التحقيق».

واستقل السودان، وأصبح رئيس الحكومة صديقه وزميله فى الجهاد إسماعيل الأزهرى؛ فهرع إلى السودان مهنئاً بالحرية والاستقلال، ونزل عند صديقه ضيفاً؛ ثم عاودته العواطف الجياشة نحو أعالى النيل؛ نحو الجنوب؛ فأعد برنامج الرحلة؛ ثم السفر بالقطار نحو كوستى، وقد ودعه مندوب السيد الأزهرى «محمد عثمان المفتى»، واستغرق الليل كله بالقطار؛ وفى الصباح وصل ميناء كوستى؛ وفى الساعة الثامنة والنصف تحركت الباخرة مستغرقة رحلته نحو الجنوب، وكان برفقته جماعة من السودانيين الذين عرفوا الجنوب من قبل؛ يسألهم أسئلة جغرافية حول النيل من طول وعرض وعمق وجزر ومواسم فيضان؛ ثم يكشف لنا معالم العمران والمدنية، وقضايا تتعلق بالايمان، ويلتقى بأشخاص من قبائل مختلفة؛ فيعرفنا بالقبائل؛ وطباعها؛ وعدد أفرادها.

نعرف عن طريقه قبائل «الشلك» الذين يسكنون على شاطئ النيل من «تونجا» إلى «كاكا» على الشاطئ الغربى للنيل، ومن «الملكال» حتى «السوباط»؛ وهم أكثر القبائل اشتغالاً بالزراعة، ويصف الظواهر الطبيعية ونمط الحياة الاجتماعية فى القرى التى يشاهدها؛ ويختلط مع أفرادها؛

كما بين المعيار الاقتصادى فيها.

وتغلب الرؤية السياسية على هذه الرحلة. حيث يتحدث عن الحرية، والاستعمار؛ والاستقلال، والشخصيةالمستقلة، وحب الوطن. وتسيطر شخصيته على الرحلة كاملة، ونقرأ على لسانه كلمات الوطنية، ومقارعة الظلم والاستبداد، ومحاربة الجهل والخرافات، ووحدة الكلمة، والتعاون، والدعوة إلى التآزر.

ولا يحرص الرحالة على لقاء الحكام؛ كما أن هدفه ليس تعليمياً، وإنما هو حب الاستكشاف والترحل من سياسى بارع، محب لوطنه بعمق وإخلاص. لم يلهث وراء الغرب وحضارته؛ لأنه كاره للانجليز وظلمهم؛ وإنما يستوحى التاريخ عن وحدة وادى النيل. وهو يدعو إلى الالتزام بالأسلوب العلمى في التخطيط الاقتصادى. وأصدقاء رحلته هم: عبد الرحيم عربى أحد كبار موظفى السكة الحديد التقي به فى القطار من الخرطوم إلى كوستى ليركب الباخرة؛ واصطحبه فى رحلته بالباخرة أيضاً. الشيخ داود إمام مسجد جوبا. المستر جوردون عضو مجلس الشيوخ فى الجنوب، وهو جنوبى الأصل ولكنه تربى وتعلم مع الإرساليات. الشيخ أبو فرحة مبعوث الأزهر في منطقة الملكال. الدكتور عبد القادر المشرف على صيدلية جوبا. أحد الصيادين.

وقد سجل رحلته لحظة حدوثها على عكس احمد محمد حسنين الذى آثر تسجيلها بعد الانتهاء منها. لغته بسيطة سهلة؛ يكثر من المواقف الحوارية. وهو يدون اليوم، والتاريخ، والتوقيت بالساعة. وفطن إلى بعض الألفاظ الغريبة، فوضعها بين أقواس. مستعيناً بالآيات القرآنية فى كثير من المواضع.

وقارئ هذه الرحلة ينتهى إلى أن صاحبها كان راغباً من ورائها فى الدعوة إلى الوحدة؛ وإلى كراهية الإنجلين، والتمسك بالشخصية الوطنية والقومية، والحب، والحرية. كل ذلك من خلال رحلة قصيرة جداً؛ لكنها اتخذت وسيلة لبث ذلك كله. مما يؤكد أننا رويداً رويداً ننتقل مع الرحالة من هدف جديد إلى آخر مبتكر؛ ومن أرض إلى أرض؛ ومن وسيلة إلى وسيلة! وقد ذهب البعض إلى اعتبار أدب الرحلات أبا الآداب جميعاً؛ لأنه يمكن أن يحوي كل فنون الأدب؛ إلى جانب العلوم الإنسانية الاخري كعلم النفس وعلم الاجتماع، والتاريخ، والجغرافيا، والانثروبولوچيا. ففى نظرهم إن القارئ يجد فيه المقالة الموضوعية، والنقدية والوصفية؛ كما يظفر بالترجمة الشخصية؛ والتعريف بالدول التى يزورها الكاتب: سياسياً واجتماعياً وفنياً؛ فضلاً عن التعريف بأعلام هذه الدول قديماً وحديثاً. وفيه يجد القارئ متعة عند قراءة الحكايات التاريخية؛ أو الأساطير، وتاريخ البلدان؛ وعادات السكان، وطريقة تفكيرهم وحضارتهم القديمة والمعاصرة، وموقفهم من الحضارة العالمية، والتكنولوچيا الحديثة. ولا بأس من أن نقرأ فى كتب الرحلة قصص بعض الشعوب، وأدبهم؛ وكيف تعمل الثقافة على جعل الحياة خالية من المعاناة.

ويأخذ هؤلاء بمفهوم عام لأدب الرحلات مفاده أنه صورة للمجتمع ككل: ظلالاً وحقيقة وأضواءً. إيجابيات وسلبيات. لذا فإن كاتب هذا اللون من الأدب يجب أن تكون لديه فكرة عن تاريخ العالم بوجه عام، وعن حضارته القديمة والحديثة، والحروب المختلفة، والنظم السياسية المتباينة؛ وتاريخ ونظام وحضارة البلد الذى يزوره بخاصة؛ حتى يستطيع أن يربط ما يشاهده فى رحلته الآنية بأصوله التاريخية إن وجدت.

وثمة مثال إنجليزى ينصح المسافر بأن تكون له عينا صقر ليرى كل شئ، وأذنا حمار ليسمع كل شئ، وفم خنزير ليأكل أي شئ، وظهر جمل ليتحمل أي شئ، وساقا معزة لا تتعبان من المشي؛ وأن يحمل معه حقيبتين مملوءتين بالمال والصبر. وقد يحتاج الرحالة المعاصر إلى أدوات ووسـائل جديدة: لسـان متعدد اللغات، حـافظة قوية، قـدرة علـى تحمل الصعاب، موهبة قصـصية، قلم موهـوب كي يصـوغ التجربة صـياغة أدبيـة وفنيـة متميزة، هـدف محـدد واضـح لا ينسـى فيه القارئ الذى يتقدم إليه برحلته أو بمجموع رحلاته، إلمام يقظ وواع بما سبق أن قدم فى هذا المجال منذ بدء مشـوار أدب الرحلة قديمـاً حتى اللحـظة التى فيهـا يبدأ التفـكير فى تسـجيل رحـلته؛ حتى يتجنب التكـرار؛ وحتى يضـيف جديداً.

وإذا ما خطونا خطوة نحو الأدب الحديث والمعاصر؛ فإنا سوف نجد للأديب الكبير محمود تيمور إسهاماً واضحاً فى أدب الرحلات فلم يخلف رحلة أو رحلتين كما لاحظنا عند الكتاب القدامى؛ وإنما سجل أربع رحلات فى أربعة كتب. جاءت رحلته الأولي فى كتاب (أبو الهول يطير) مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٤٧، والثانية فى (شمس وليل) مكتبة الآداب ومطبعتها ١٩٥٧، والثالثة في (جزيرة الجيب) مكتبة الآداب ومطبعتها ١٩٦٣، والرابعة فى (خطوات على الشلال) مطبعة الكيلانى الصغير – القاهرة ١٩٦٥ ... والرحلات جميعاً تلتقي عند مجموعة من السمات، وقد قام بثلاثة منها على نفقته الخاصة. وكان قد اطلع على تراثنا العربى القديم فى هذا المجال، وحاول أن يكون أسلوبه متميزا ورؤيته مستقلة،

وصوره أقرب إلى الصورة الأدبية في تعبيرها عن الواقع الذى يشاهده وينقله. كما أنه كان شديد التأمل والوقوف عند كل ما يتصل بالثقافة والفـن؛ مـن مكتبات، ومتـاحف، ودور عـرض سينمائى ومسرحى، وما شابه ذلك.

أما رحلته (أبو الهول يطير) فإنه أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى الطائرة التى نقلته إلى أمريكا؛ وكانت تسمى «أبو الهول» والهدف من رحلته هو علاج زوجته هناك. وقد بدأت رحلته فى ٣٠ من مارس – وفى طريقه إلى أمريكا مر بأثينا، وروما، وسويسرا، وباريس، وبعض المدن الآخرى. علماً بأنه كان يمكث فى كل بلد عدداً محدوداً من الساعات؛ إلى أن تزود الطائرة بالوقود؛ أو بقصد الراحة. ولم يبق يوماً إلا فى باريس.. ونراه يصف الشوارع، والمبانى، وناطحات السحاب، والمتاحف، ووسائل المواصلات، والصحافة، والمجلات، والمسارح، والمطاعم، والطرق؛ وكل ما رآه فى أمريكا. وقد كتبت هذه الرحلة فى شكل مذكرات ورسائل. وقد اتخذت الرسائل طابعاً حزيناً؛ إذ كان يبعث بها إلى روح ابنه المتوفى. بـدأت فـى ١٩٤٦/٤/٤ وانتهت ١٩٤٦/١٠/٥. تتصدرها دائماً دعـوة (أي بنى).

ولم تكن الرحلة خالصة للعلاج؛ ولكنها كانت رحلة سياحية فى ذات الوقت؛ لأنه لو توفر على العلاج وحده ما أتيحت له فرصة وصف ما أشرنا إليه من عادات وتقاليد ومبان. وفى كل رسالة كان يربط ما يصفه بما هو موجود في مصر. كما أن كل رسالة تحمل موضوعاً معيناً. مرة يتحدث عن الأدب والفن، وأخري عن عادات الناس وتقاليدهم. وثالثة يتناول

الفنادق ويقارن بينها وبين ما هو موجود فى مصر. وهكذا عن الكتب والسينما والصحافة والموسيقى والغناء؛ وأحياء الصين وإيطاليا والزنوج والروس والأسبان؛ وقد عرض للصراع بين البيض والسود. واستغرقت رحلته إلى أمريكا أربعة أشهر؛ بالإضافة إلى شهرين قضاهما فى البلاد الأخرى. وقد اقترب فى رسائله من الاسلوب القصصى باعتباره كاتباً قصصياً من الدرجة الأولى؛ لكن الرحلة في مجموعها لم تفد من خصائص القصة ولم تقترب منها.

الرحلة الثانية كانت إلى السويد أوبلاد الشمس فى منتصف الليل؛ مستقلاً الطائرة أيضاً. والرحلة عبارة عن فصول ، يحمل كل فصل عنوانا مستقلاً. عرفنا بآثار السويد القديمة والحديثة. وكذلك الحدائق، والمتاحف، والقصور. زار قصر الغرام أشهر القصور هناك. ونالت عاصمة السويد جزءا من اهتمامه. ولعل أعجب ما فى الرحلة ثمانية أيام قضاها فى قطار الشمس؛ جعل لكل يوم من الثمانية جزءا مستقلاً. ووصفه يجعل القارئ يعيش فى هذه الأماكن وكأنه يزورها معه، وينتقل فيها من الشمال إلى الجنوب، من استكهلم إلى شمال النرويج، والمناجم، والبحيرات، والسهول، والحقول. وخلال ذلك كله لا يفتأ يقارن ما يراه ونظيره فى مصر. وعناوين فصوله لا تبعد عن: جزيرة الأحلام – قصر الغرام – الحضارة فى خطوات – جزيرة الدفاع – خطوات في العاصمة. كما أن كل فصل ينقسم إلى أقسام، تحمل أرقاماً. وفى هذه الرحلة يضيف حديثاً عن أوضاع الناس فى العالم الثالث، والثروة وكيفية استغلالها؛ وكيف قضى الشعب السويدى على الجهل والفقر والمرض.

وهنا يظهر دور للمرأة فى الرحلة من حيث هى صاحبة دور فى الحياة، وفى الوظائف فى جميع المدن السويدية؛ ومن ثم وصفها محمود تيمور وصفاً جيداً؛ مقارناً بينها وبين المرأة فى الشرق. والرحلة مكانية في المقام الأول، ككل رحلات محمود تيمور السابقة.

من السويد إلى إيطاليا حيث تكون الرحلة الثالثة وقد وصلها قادماً من سويسرا. وهى رحلة سياحية كتبها فى فصول متنوعة، وضع لكل فصل عنواناً يحمل اسم المكان الذى يزوره؛ وهذه الأماكن هى: قدوم على روما - جزيرة الجيب - قصر طبريوس (قلعة الامبراطور السجين) - إلى الميناء الصغير - إلى مغنى سان ميشيل - المغارة الزرقاء - فى مدينة الموتى - يوم فى نابولى - المدينة الخالدة روما. وكانت روما هى أكثر المدن التى مكث بها، وحظيت منه باهتمام ملحوظ؛ إذ إنه تحدث عنها فى عشرة أقسام: الآثار القديمة - الآثار العصرية - الفاتيكان - دور العبادة - سفارتنا المصرية - الضواحى - وغير ذلك.

ويبدو أن كل مكان فى روما أشبه بالجيب الصغير؛ لذا فإنا نرى محمود تيمور يقول فى وصفه هذه الجزيرة. (تحل الميناء فإنه ميناء جيب. وتصعد إلى كابرى فإذا هى مدينة جيب. وتبرحها إلى فوق فإذا هى ضاحية جيب فلا تملك إلا أن تقرر أنك فى جزيرة جيب) وقد قدم لنا هذه المدينة بنفس الأسلوب والطريقة التى قدم بها المدن السابقة. ووقف عند الأماكن التى أشرنا إليها. ولم ينس قط ربط ما يراه بما تركه فى مصر. والجديد هنا أنه يسرد ويصف ويحكى كما لو كان يتوجه بحديثه إلى مخاطب يجلس أمامه. مما يثير فى نفس القارئ إحساساً بأن الكاتب

يخاطبه هو. وربما اتخذ هذه الطريقة وسيلة تحل محل ابنه المتوفى الذى كان يرسل إليه الرسائل. وهنا أيضاً يدون رحلته على هيئة فصول أو موضوعات يحمل كل موضوع اسماً أو عنواناً منفصلاً لأشهر الأماكن التى يتحدث عنها فى هذا الفصل أو الموضوع. وهو لم يحدد الفترة الزمنية التى استغرقت رحلته هذه.

لا ظل للمرأة فى هذه الرحلة. ولا علاقة لها بالقصة الطويلة أو القصيرة. وإن كنا نلاحظ أن لغة محمود تيمور فى الرحلات السابقة لغة سهلة، لا تعقيد فيها ولا غموض. والكلمات مما يقرؤه القارئ فى المجلة السيارة أو الصحيفة اليومية. لقد أدرك محمود تيمور أنه ينقل تجارب خاصة من ناحية، وأنه يعرف القارئ بأماكن يرغبه فى الارتحال إليها من ناحية آخرى؛ لذا اختار لها لغة تختلف إلى حد ما عن تلك اللغة التى عرف بها محمود تيمور وحرص عليها فى كتاباته الأدبية الآخرى.

رحلة آخرى لا يفوتنا أن نشير إليها قام بها لزيارة مدينة أسوان، ثم الأقصر، وما حولهما من معالم أثرية وسياحية. وكان قد دعى لحضور ندوة عقدتها دار الثقافة بمدينة أسوان. تحدث عن السد العالى ومعبد ايزيس وأبى سنبل ومعبد رمسيس الثانى؛ وطريقة الوصول إلى كلٍ بالباخرة أو بالزورق أو بالطائرة. وجزيرة النباتات ومعبد كلابشة وقصر أغاخان. وقد دون هذه الرحلة بعد عودته بفترة طويلة. تحدث فيها بضمير المتكلمين: «نحن، رأينا، لاحت لنا». والرحلة كسابقتها فى كل شئ : لغة بسيطة. الوصف حافل بالحركة لا يثير الملل؛ بل إنه جاذب للقراءة. يستعين بآيات قرآنية. يقسمها إلى فصول أو موضوعات لكل منها عنوان

مستقل. هدفه سياحى فى الأغلب الأعم. يحتفل بالفن، ويهتم بالمسرح والسينما. يحتل المكان أهمية بارزة. تدور الرحلة حول ذاته وشخصه؛ وإن وجد آخرون فإنهم قليلون من ناحية، ولا دور لهم من ناحية أخرى. ومع ذلك فإن أحداً لم يتناول كتابات محمود تيمور فى أدب الرحلة بالدراسة؛ فى محاولة لمعرفة دوره، واكتشاف وجوه التأثر والتأثير المتبادلة مع فنون الأدب الأخرى التى يمارس الإبداع فيها.

لكن أحداً من الدارسين لم ينس الدكتور حسين فوزي، وهو من جيل الرواد الذى ينتمى إليه محمود تيمور. ذلك أن جل كتاباته الباقية تدخل فى هذا المجال. وهو ينفرد من بين أبناء جيله بهذا الاتجاه. ومؤلفاته تشهد بذلك: «سندباد فى رحلة الحياة» ١٩٦٨، «سندباد مصرى» ١٩٦٩، «سندباد فى سيارة» ١٩٧٢، «سندباد إلى الغرب»، «سندباد عصرى يعود إلى الهند»، «حديث السندباد القديم»، «سندباد عصرى» ١٩٧٦.

لفتت شخصية السندباد فى «ألف ليلة وليلة» اهتمام الدكتور حسين فوزى فاختارها لتتصدر عناوين كتبه التى تدور حول الرحلة. والسندباد البرى رجل جمال فقير عاش فى زمن هارون الرشيد ولم يغادر بغداد، بينما السندباد البحرى من أولاد الذوات وأكابر القوم أضاع ثروة أبيه ثم خرج يطوف فى البحار حتى توفرت له أسباب الثراء والنعمة. وقصة السندباد خيالية صيغت فى أسلوب محكم، ولم تخل من بعض ماورد فى كتب التاريخ والجغرافيا. حاول الدكتور حسين فوزى إرجاعها إلى أصلها بشكل أو بآخر. وهو يعنى من وراء استخدام هذه الشخصية كل من حاول

القيام برحلة برية أو بحرية، وواجهته بعض الصعاب؛ لكنه استطاع بالعزم والذكاء والحكمة التخلص منها؛ ثم العودة إلى وطنه سالماً. وهذا هو ما صرح به فى كتابه (حديث السندباد القديم) : «حكاية السندباد هى قصة جميع الرحالين المستكشفين، أولئك الذين يتركون السبيل المطروق السوي إلى المسالك الـــوعرة المجهولة رغبة فـــى المعرفة، وتحقيقاً لأحلام نفوسهم الغلابة».

ويضيف الدكتور حسين فوزى إلى ذلك ما يشير إلى الكتب التى تأثر بها والشخصيات التى استهوته : «من أوائل الكتب التى وقعت فى يدى وأنا طفل كتابان « الف ليلة وليلة »، « عجائب الهند بره وبحره وجزائره» لصاحبه برزك بن شهريار الناخداه. وقد استهوتنى من ألف ليلة وليلة بصفة خاصة رحلات السندباد. أما الكتاب الثانى فكله قصص وعجائب بحرية؛ إنه رحلات سندبادية دون أن يرد اسم السندباد ». وفى موضع آخر يقول عن السندباد إنه « معلمى الأول » ويشكل « اللحظات الأولى فى غرامى ».

ولم يكن ولاء السندباد الجديد - الدكتور حسين فوزى - تاماً لسندباده القديم؛ فقد اختلفت أهداف رحلته عن تلك التى كان السندباد البرى أو البحرى يسعى لتحقيقها. إنه يبحث فى الحضارات القديمة أولاً؛ والحديثة بعدئذ. شغلته الحضارة الفرعونية، كما بهرته حضارة العرب فى الأندلس؛ وفى الهند؛ وفى بلاد المغرب العربى؛ وفى أوربا. وهو يدعو إلى الأخذ بما يحدث تغيراً وتطويراً فى المجتمع من وسائل حضارية؛ ولا يناصر تقديس الحضارات؛ أو عبادتها. وفى كتابه (سندباد فى رحلة

الحياة) يقول إنه كان قد ذهب إلى أوربا ليدرس علماً من العلوم؛ وليطبق ذلك العلم فى تنمية الثروة القومية : «وقضيت شطراً هاماً من عمرى أؤدى واجبى فى هذه الناحية، ولكننى كنت مدركاً تمام الإدراك أن وراء مهمتى العلمية والتطبيقية شيئاً يفوقها وهو دراسة الحضارة حتى أغوص إلى أعمق أعماقها». إنه مولع بدراسة الحضارات؛ والانتقال إلى معالمها وآثارها؛ والقراءة حولها؛ وتقديم أحاديث وبحوث عنها .

وقف عند حضارة الهند من خلال رحلته إلى هناك على ظهر سفينة من ميناء الإسكندرية فى بعثة علمية استغرقت تسعة أشهر. والسفينة كانت ملأى بمجموعة آلات علمية وشباك وصناديق توجد بها آلاف القنينات الفارغة أو التى تحتوى على مواد كيميائية. أما ركاب السفينة فكانوا (نخبة من شبيبة رقيقة الحواشى، ناعمة الأيدى، يظهر على افرادها أنهم من خريجى الجامعات، ويغلب فيهم ذوو الشعر الأصفر والعيون الزرقاء؛ قيل إنهم أعضاء بعثة أجنبية جاءت تستعير سفينة مصرية بضباطها وبحارتها، وتشترك مع بعض الأخصائيين المصريين فى دراسة مستفيضة لمياه البحر الأحمر والمحيط الهندى وما تكنه من أسرار حية وجامدة) سندباد عصرى – المقدمة.

ويستمر قائلاً : (كان من نصيبى أن أركب هذه السفينة طوال رحلتها الهندية. وأن اشترك فى مباحثها العلمية. وأشرف على صحة ركابها. وكتابى هذا إنما هو صفحات ضمنتها صوراً وخواطر أوحت بها إلى جولاتى فى أنحاء المحيط الهندى، وحياتى على ظهر السفينة. دون ادعاء أو حذلقة فنية. بسيط العبارة يسرد الحوادث ويصف المناظر

لا لقيمة خاصة بها، بل تبعاً لما أثارته فى نفسى من إحساس، وفى ذهنى من تفكير.). ثم يصف المناطق التي يمر بها، ويتحدث عن عادات أهلها وتقاليدهم، متابعاً رحلة السفينة في البحر العربي إلى خليج عمان، ثم انحدارها إلى كراتشى ميناء السند، وعودتها تذرع المحيط الهندى غرباً وشرقاً، وجنوبياً وشمالاً. ونقرأ له وصفاً لطائفة الهندوس، وبقاء فكرة التناسخ والتقمص بقوة فى معتقدات الهنود.

ولا يخفى الكاتب وجهة نظره التى ينظر بها إلى الحضارة الغربية. إنها واضحة يمكن تتبعها بعدئذ فى كل ما كتب. نجد انعكاساً لها فى رؤيته للحضارة العربية، وفى موقفه منها. من ذلك ما يقوله فى مقدمة نفس الكتاب: (درجت على حب الغرب، والإعجاب بحضارة الغرب، وقضيت أهم أدوار التكوين من عمرى فى أوربا فتمكنت أواصر حبى، وتقوت دعائم إعجابى، فلما ذهبت إلى الشرق عدت إلى بلادى وقد استحال الحب والإعجاب إيماناً بكل ما هو غربى) والمقدمة مؤرخة فى أكتوبر ١٩٣٧ بالإسكندرية. فهو يصدر فى كتاباته عن موقف مسبق، وهوى واضح، فيه الميل الشديد للغرب، وما يتعلق به؛ وقد يكون ذلك على حساب بعض الحضارات الأخري. وإن قارئ كتاب (سندباد فى رحلة الحياة) ٦، ٧، ٨؛ قد يلحظ شيئاً من هذا.

لكنه فى (سندباد مصرى) يغوص بنا فى أعماق الحضارة المصرية القديمة، موضحاً كيف نبغ الفراعنة فى فن العمارة، وغيره من الفنون؛ وكيف أن الفنان المصرى لم يكن «أرتست» بالمعنى الذى نعرف. لم يصور ولم يحفر ولم ينحت لتراها العين في معرض، أو ليقتنيها الأثرياء

فى بيوتهم؛ إنه يعمل للأبدية ،للخلود ويخرج من هذا إلى فضل الحضارة المصرية على العالم. ويعود فى (سندباد إلى الغرب) إلى نقد المصريين، ويشخص أمراضهم، ونقد الصحافة، وانسياق الشعب وراء العاطفة، ورغبته في تزييف الحقائق؛ ثم يقرر أنه لا طريق إلى التحضر والنهوض إلا بالانفتاح على حضارة أوربا؛ ويعلنها صريحة: (أوربا مثلنا الأعلى فى كل ما نريده لبلادنا من خير ورفعة)، ٣٢، ٣٣.

وسر رقى الشعوب وتقدمها، والأسس التى تستند إليها حضارتها، تكمن جميعاً فى نظام التعليم، وفى الفنون، والآداب، والموسيقى، والمسرح. وقبل هذا وذاك : هل توجد حرية فكر أم لا ؟! فالفكر الحر هو سبيل التقدم. يقول : (عرفت للمرة المائة بعد المائة سر رقى الشعوب، فهو فى غير الزبد والمدفع، إنما هو فى فكر الفيلسوف، ومعمل العالم، وريشة المصور، وقلم الكاتب والموسيقى) سندباد إلى الغرب – ١٣١. ويقول : (إننى حينما أريد أن أحكم على بلد أسأل عن عاصمتها، إن كانت فيها دار للأوبرا، وجامعة، وهل لديهم قاعات للموسيقى وأوركسترا سيمفونى، وكيف تعمل مجلاتهم، وماذا يحقق مثقفوهم فى العالم، هل لديهم روائيون ممتازون، وما حال المسرح عندهم ؟ وما إلى ذلك) سندباد فى رحلة الحياة –١١٥.

أما المرأة فإن لها نصيبا كبيراً فى أدب الرحلة عند الدكتور حسين فوزى. فما أكثر ما حدثنا عن تطور دور المرأة فى المجتمع؛ وعن إسهامها الحضاري، ودخولها مجال التعليم والعمل، واختلاط الجنسين. وقد أفرد فصلاً فى كتابه «سندباد إلى الغرب» تحت عنوان «المطارد» يصف فيه

علاقة الطلاب بالطالبات فى رحلة علمية قامت بها جامعة « تولوز» إحدى الجامعات الفرنسية. وفصوله الأخرى المعنونة «ڤينوس من الأبنوس» و«ابنة البنجاب» و«غرام فى السيرك» الذى يحكى فيه قصة غرامه بلاعبة السيرك الإيطالية التى كانت تحيى ليالى المولد بالسيدة زينب من كل عام. وفى كتابه «سندباد عصرى» يفرد للمرأة فصلين : الأول بعنوان «ويحك يا ابن بطوطة» والثانى بعنوان «نسائيات». وفى «سندباد إلى الغرب» وبعد أن ركب الطائرة الفرنسية من لندن إلى پاريس يتفنن فى وصف مضيفة الطائرة الفرنسية. وفى نفس الكتاب يخصص فصلين كاملين للمرأة. الأول بعنوان «مدينة للنساء» والثانى بعنوان «القبلة الهائمة».

وفى أثناء حديثه عن الحضارة المصرية القديمة، تعرض لدور المرأة فى كتابه (سندباد مصرى) وأفرد فصلاً كاملاً بعنوان «ملكات ثلاث» تناول الدور السياسى للمرأة فى مصر متمثلاً فى ثلاث حقب تاريخية مختلفة، وهن «كليوباترا» آخر مملوك البطالمة، و«حتشبسوت» من الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية . وهو لا يغفل الحديث عن كل عنصر من عناصر بناء الحضارة إلا وتناوله بالشرح والتحليل؛ وطالب به، منتهزاً الفرص لذلك فى ثنايا كتبه جميعاً. وهى وإن كانت كتباً فى الرحلة فإن رحلته غالباً ما تكون فى «الزمان»؛ بالإضافة إلى ربط هذا الزمان بمكان معين؛ مما يسمح له بالحديث عن التاريخ؛ وصور الحضارة.

ولأنه يستعين أحياناً بكتابات المؤرخين اليونانيين، والإنجليز، والفرنسيين؛ والمصريين فى عصر المماليك ، فإنه كان يخفف من حدة هذه الاستشهادات والنقول بابتكار مواقف حافلة بالتناقض مما يثير السخرية، ويدفع إلى النقد اللاذع. وقد ضمن رحلاته فقرات وقصصاً وطرائف بهدف الإثارة والتشويق. بالإضافة إلى العناوين اللافتة لنظر

القارئ، مثل «غرام فى السيرك»، «طبيب العيون وعيون السمكة»، «الجمعة الحزينة»، «القردة الخطافة»، «الخروف الذى أفلت من خرم إبرة».

ولغة الدكتور حسين فوزى سهلة؛ وأسلوبه غاية فى اليسر، طعم لغته بكلمات عامية كثيرة كان يتعمدها، تركيزا لفكرة؛ أو نقلاً لانطباع، أو حكماً على حدث. لم يكن هذا غريباً على الدكتور حسين فوزى الذى انفرد بهذه الدعوة منذ ١٩٢٥؛ فى حين كان رفاقه من الأدباء الكبار يدعون إلى العربية الفصحى، ويغيرون أعمالهم التى كتبوها بالعامية؛ ويعيدون كتابتها بالفصحى الخالصة. يقول عن نفسه (وأما تحولى إلى العامية فى بعض الألفاظ، وبعض التراكيب، فهو مذهب لى قديم، وضعته موضع الامتحان فى أول كتاب لى نشرته ١٩٣٧ وهو «سندباد عصرى» وزادتنى الأيام تمسكاً به، فهو لا يبدو اليوم ناشزاً كما كان يبدو منذ نيف وعشرين عاماً، لأن الجيل الحي من كتاب اليوم أخذ به، وأبدع فيه).

وكما سبق القول فإن رحلاته يغلب عليها الطابع الحضاري؛ إذ إنه لا يستطيع التقيد بمكان معين مرة طويلة من الزمن؛ وإنما يكتب مرتحلاً فى الزمان. ووصفه للمكان يأتى غير واف قد تنقصه الدقة والتفصيل اللذين كنا نلمحهما فى رحلات الأقدمين. ولعل للطائرة دخلاً فى ذلك. إنه لا يستقر في مكان ما، كذلك فإن السيارة أو الباخرة لا تساعدانه على البقاء طويلاً. وهو فى بعض رحلاته استعان بخياله الذى وظفه فى خدمة ما قدمه التاريخ له من وقائع وأحداث وقصص وحكايات. مثال ذلك رحلته «حديث السندباد القديم» التى يقول عنها إنها «رحلة خيالية فى الزمان

والمكان على السواء، فأنا أعود بخيالى إلى المحيط الهندى لا كما عرفته منذ نحو عشر سنوات. بل كما عرفه البحريون العرب فيما بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر». ومن هنا وجد فرصته فى صياغة بعض رحلاته فى شكل حكايات؛ كان دوره فيها هو الحكي والسرد والقص. وهذا ما نلاحظه فى رحلته (سندباد مصرى) ورحلته (سندباد فى سيارة) التى يسوق لنا فيها تاريخ المغرب والأندلس منذ الفتوحات الإسلامية؛ ويقف بنا عند تلك الحضارة الباهرة، وعند عصر ملوك الطوائف؛ فى أسلوب أقرب إلى أسلوب القصة والرواية.

الكاتب المصرى الذى جعل الرحلة همه بالليل والنهار، وحقق عن طريقها انتصارات صحفية، ونال بسببها جائزة الدولة التشجيعية؛ هو أنيس منصور. ألف عدداً من الكتب تدور حول رحلاته الكثيرة، وقدم من خلالها معلومات، وشخصيات، وطرائف، متنوعة. 'أداته فى ذلك لغة سريعة خاطفة؛ وجمل قصيرة جداً، وعبارات خفيفة لا عمق فيها؛ ولا تحليل يرهقها. ومع أنه كتب كثيراً من المقالات، والقصص، والدراسات، والمسرحيات، والتراجم الذاتية؛ فإنه شهر عند الجمهور القارئ محلياً وعربياً، بأنه كاتب رحلات، وصاحب خبرة فى نقلها.

من كتبه التى تدخل فـــى دائرة أدب الرحلات : حول العالم فى ٢٠٠ يوم – غريب في بلاد غريبة – بلاد الله خلق الله – أطيب تحياتى من موسكو – اليمن ذلك المجهول – أيام فى الجزائر البيضاء – أعجب الرحلات فى التاريخ – أنت فى اليابان – أوراق على شجر – لعنة الفراعنة.

ومن نافلة القول أن نقول إنه زار عدداً من الدول كاليابان وموسكو واليمن والفلبين والجزائر وليبريا ومعظم دول العالم : شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، عرباً وأوربيين. عرفنا الفنادق والقصور والمكتبات والمسارح والنوادى الليلية والميادين العامة. والأكثر من هذه محطات المترو والقطارات (وكان طبيعياً أن أتجه فوراً إلى محطة طوكيو فقد أمضيت أياماً طويلة فى محطات موسكو ولندن وباريس وميونخ، وأياماً فى محطة روما ونيويورك وسيدنى وهافانا) وعن القطار يقول : (وأجد متعة فى النظر إلى القطار متربعاً على الأعواد الحديدية رزيناً حكيماً. ينفخ ويزمجر كأنه يفكر، أو كأنه قد فكر، ولكن الذى قاله جاء بمفردات آخرى.. لا تهم المفردات.. ولكنه فكر ودبر وتحرك وانطلق ولذلك فأنا لا أحب المترو، ولا القطارات الكهربية. إنها أسرع وأنعم، ولكن ليست فيها المعانى التي أجدها فى القطار ولا التى كنت أجدها وأنا واقف فى محلات البن، والبخار يتصاعد والروائح القوية للبن تملأ الرأس وتجلو الفكر وتشحذ الخيال.)

وأهم الشخصيات التى يحرص الكاتب على مقابلتها فى رحلاته شخصيات سياسية أو أدبية أو فلاسفة ومفكرين. ففى زيارته لروسيا طلب زيارة أحد قصور الثقافة وكان على بعد خمسين كيلو مترا. وخطر له مقابلة الأديب الروسي الكبير شولوخوف مؤلف «نهر الدون الهادئ» والفائز بجائزة نوبل. وأعجبه فى روسيا أنهم صنعوا تماثيل لأدبائها وشعرائها ووضعوها فى الميادين العامة. للموسيقار تشايكوفسكى، وللروائى العظيم دستويفسكى، والكاتب المسرحى والقصصى جوجول؛ وتشيخوف، وجوركى. وإذا ما كان هناك متحف فى بعض المدن؛ فإنه يسارع إلى

زيارته، ووصفه كما فعل مع المتحف الكبير بمدينة لينينجراد الذى يسمونه متحف المتاحف. وأحيانا نجده يصف مدينة أعجب بها أو شارعا أو ميناء.

ونظفر بتعليقاته الجانبية؛ أو ببثه معلومة هنا أو هناك؛ فى ثنايا وصفه أو حديثه. فهو عندما يتحدث عن مدينة لينينجراد ومقاومتها للاحتلال الألمانى يلفت النظر إلى أنه يجب على الإنسان أن يتعلم لغة عدوه؛ عن ذلك قوله : (والروس ينطقون الإنجليزية بلهجة أمريكية مائة فى المائة. ومن الممكن أن نتساءل نحن جميعاً كم عدد الذين يدرسون لنا اللغة العبرية فى مصر والبلاد العربية ؟ وكم عدد الذين يعرفون اللغة العبرية ؟ إننا لم نعرف بعد كيف نعرف عدونا.) وعندما قابل الكاتب المسلمين فى الاتحاد السوفيتى لم ينس أن يكتب معرفاً ببعض علماء الإسلام؛ كالإمام البخارى، الذى جمع الأحاديث النبوية، والفيلسوف الطبيب ابن سينا وأبى بكر الخوارزمى الذى اشتهر بأنه كان يحفظ كل الشعر العربى. كما يعرفنا معنى «الروشة» قائلاً : (أما الروشة فهى من الكلمة الفرنسية «لاروش» بمعنى الصخرة. وهى صخرة ضخمة فى مدخل بيروت. وكثير من الشبان فى ساعات الضيق ينتحرون عندها. يموت الناس وتبقى هذه الروشة لقمة جامدة فى حلق بيروت. أو هى دمعة تدحرجت من عين أم حزينة على ولدها. وصدها البحر لكى تبقى على الشاطئ دليلاً على احتقار البحر لأبناء الشاطئ.)

وبعض البلاد حظيت بوصف الكاتب لها جغرافياً مثل الفلبين، وجزيرة قبرص، وتايلاند، ولوكسمبرج؛ كما أن بعضها شغلته فيها الحياة الثقافية؛ والحديث عن الصحف والمجلات محدودة الانتشار، مثلما فعل فى

(اليمن ذلك المجهول)؛ التى أعجبته فيها المرأة اليمنية سافرة الوجه والملامح؛ والتى ترتدى البنطلون الضيق - البلوجينز.

والمرأة فى جميع رحلات أنيس منصور شخصية محورية، وعنصر مهم. ففي أي مكان يذهب إليه يبحث عنها.

إنه يهوى محادثة النساء، والحديث عنهن، ووصفهن. عندما ذهب إلى النرويج، وكوريا، ولبنان، والجزائر، وموسكو. ففى كوريا كان أول لقاء بينه وبين سيدة كورية تركية أمريكية الجنسية. نظر إلى شفتيها وإلى عينيها وإلى أذنيها وإلى بشرتها. ثم «إنها هى التى « وضعت ساقاً على ساق». وفى الجزائر تحدث عن أختين أحبتا شخصاً واحداً. ورفض والدهما أن يزوجه واحدة منهما. فأضربا عن الطعام أسبوعين؛ فماتا ومات الشاب بعدهما . ودفن الجميع معاً. وذكر الفتاة التى تخلفت عن القافلة ودخلت الغار، وتزوجت القائد ابن مقدوم وكانت تدعى «داية»؛ فسميت منطقة الغار باسمها. وحكى حكاية سيدة فرنسية طلبت تبنى طفل يتيم جزائرى لكنهم رفضوا.

والمرأة فى الهند ترتدى الفساتين الغريبة جداً - فى نظره - فالسارى قطعة من الحرير تلتف حول الساقين وترتمى على الكتف، ويبدو وكأنه فستان من قطعتين. والمرأة فى قارة آسيا أحسن فى مركزها من قارة افريقيا، إذ إنها فى الهند رئيسة أعظم حزب وهو حزب المؤتمر كما أنها وزيرة، ونائبة، ومستشارة، وقاضية ووكيلة البرلمان. وبذلك تكون قد احتلت أعظم مناصب الدولة. وبعد الحديث عن شكل المرأة وجمالها فى موسكو ينتقل إلى عمل المرأة الروسية فيقول: (فكل اللاتى رأيتهن من

النساء العاديات العاملات الشقيات بالعمل والتعب. وعند خروجي من المطعم تطالعنا هذه السيدات يكتسحن الجليد وإذا اتسع وقتك فإنك سوف تفكر في أمر المرأة الروسية - ليس في أمرها بالضبط - فهناك ملايين من الرجال والنساء وقد شغلهم هذا الأمر. ولكن تفكر فقط في هذا الذي تفعل النساء. إنها تقطع الجليد وتنقله وليس غريباً أن تسمع من يقول حولك: هذا هو العمل.. بنات كالقمر وأجمل من القمر. أنظروا ماذا يفعلن ؟ ياعيني علينا وعلى ستاتنا، لا في لون القمر ولا في جماله. ولا يؤدين عملا. والتي تؤدي عملاً لا يعجبها الحال ولا يكفيها المال.)

وكانت عنايته فائقة بالمرأة في جزر هاواي. فقد رأى فتيات سمراوات يرتدين ملابس تشبه جلاليب الفلاحات عندنا . واسعة ولها سفرة عالية، وحول أعناق الفتيات عقود من الورد. وسكان هاواي نصف مليون؛ معظمهم من الجنس الأصفر الذي ينتمي إليه سكان اليابان والصين والفلبين، والباقي ينتمي إلى الجنس الأبيض. وقد اكتشفت هذه الجزر عام ١٧٧٨ . من بينها جزيرة «نيهاو» تملكها عائلة واحدة ، ولا يمكن دخولها إلاّ بإذن خاص. وعدد سكان هذه الجزيرة حوالي ٢٠٠ نسمة. والعائلة ترغب في أن تبقى الحياة في هذه الجزيرة كما كانت منذ آلاف السنين.

وإذا كان قد قابل بعض الزعماء وكبار السياسيين؛ فإن اهتمامه الأعظم كان بالمثقفين والكتاب والشعراء والفنانين؛ وهو يلتقي بهم لقاءات عابرة ليؤكد بها بعض ما قرأه لهم أو عنهم؛ ومن ثم فإنا لا نستطيع أن نجمع رؤية معمقة من خلال كتاباته في أدب الرحلة. فالشكل الخارجي من الحضارة والثقافة، والمظاهر السلوكية العامة؛ هي التي تشغله كي يكتب

عنها فى نفس اللحظة، أو يمليها على الصحيفة أو المجلة قبل أن تنقضى الليلة. واللغة عنده خاطفة سريعة قلقة؛ لذا فإنها لا تحمل أبعاداً فكرية؛ وإنما تنقل بشكل سريع خاطف بعض المشاهدات؛ وهو ينتقل من صورة إلى صورة، ومن مشهد إلى آخر؛ لأن كثرة الصور والمشاهد هى التى تهمه؛ وليس التحليل والتعمق. ولا يمنع هذا ما قاله الدكتور طه حسين عنه فى مقدمة كتابه (حول العالم فى ٢٠٠) : (حلو الروح خفيف الظل بعيد أشد البعد عن التكلف والتزيد والإدلال بما يصل إليه من الغرائب التى يسجلها فى كتابه. وإنما هو يمضى فى الكتابة مع اليسر والإسماح، مرسلاً نفسه على سجيتها، مطلقاً لقلمه الحرية فى الجد والهزل وفيما يشق وما يسهل لا يتكلف الفحص ولا يعتمد العامية، وإنما كتابه مزيج معتدل منسجم من اللهجتين، وهو لا يقصد إلى أن يبهرك ولا إلى أن يغرب عليك فى لفظ أو معنى وإنما يظفر بإرضاء الطباع السمحة التى تكره التكلف والتحذلق والإسفاف).

نقرأ عند مصطفى محمود كلاماً مختلفاً عماً قرأناه فى مؤلفات أنيس منصور وغيره من الرحالة المعاصرين. على الرغم من أن نتاجه فى أدب الرحلة قليل قليل.. كتابان هما «الغابة» و «مغامرة فى الصحراء».. (كان فى ذهني أن أروى ما شاهدت من انطباعات فى سياق فنى قصصى؛ وفى الجزء الأول من الكتاب كان هذا هو الطابع الملحوظ فى الأسلوب. ولكن الموضوع ما لبث أن تحول بين يدى بعد ذلك إلى دراسة علمية. أتقصى فيها المراجع وأبحث فى بطون الكتب وأحاول أن أجمع إلى شهادة الرؤية وشهادة الحواس جهود الباحثين الذين عاشوا أعمارهم فى هذه المجاهل البعيدة. وكانت طبيعة الموضوع هى التى فرضت على

هذا الأسلوب فقد انفتحت الغابة أمام عينى على عالم هائل رهيب. وكان فضول المعرفة وعطش العلم والرغبة فى الكشف أقوى من الرغبة فى التجمل الفنى. وكان الاكتفاء باللمحة العابرة التى تمنحها لي سياحتى تقصيرا لا يليق بجلال الموضوع الذى أتناوله. كنت تواقاً إلى المعرفة وكنت أشعر أن القارئ أكثر منى رغبة فى التعرف على هذه المجاهل منه فى قضاء لحظة استرخاء لذيذة بين انطباعات فنية ناقصة. لهذا فضلت أن يكون كتابى دعوة إلى معرفة وعلم أكثر منه دعوة إلى متعة فقط.)

واضح أننا أمام كاتب رحلة واع تماماً بما هو مقدم عليه. محدد الهدف الذى يريد الوصول إليه. فاهم الطريقة التى تمكنه من تحقيق هدفه، والوسائل التى يمكن استخدامها فى سبيل ذلك. وهو مدرك أن النظرة الخاطفة لا تكفي، وأن الدراسة والبحث والاستقصاء من أهم ما يؤيد ويؤكد انطباعاته. وأنه لا تستهويه القشور الخارجية، والصور البراقة، والألوان الزاهية، التى تخطف الأبصار لأول وهلة. إنه يريد الدخول فى أعمق الأعماق، وتعرية المغطى، وكشف المخبوء، كذلك فإنه لا يسعى من أجل إمتاع القارئ وتسليته والترفيه عنه؛ ولكنه يدعوه – بالعلم والمعرفة والتحليل والنظرة الصائبة – إلى المعرفة والعلم والبحث.

على هذا النحو نبت أسلوب مصطفى محمود فى «أدب الرحلات» كما يقول جلال العشرى فى كتابه (مصطفى محمود شاهد على عصره) ص ٢٢٢، وهو الأسلوب الذى لا يعتمد على الريبورتاج الصحفى أو الوصف التسجيلى، ولا يعمد إلى الإبهار اللفظى أو التجميل الفني، وإنما يتوخى التعريف والتثقيف، والجمع بين شهادة الرؤية من ناحية، وشهادة

الحواس من ناحية آخرى، مع مزج الشهادتين بجهود الباحثين الذين استكشفوا هذه العوالم وكشفوا عما فيها من خبايا وأسرار؛ (فالرغبة فى المعرفة هى التى نفخت شراع قاربه الصغير فى رحلته إلى البلد البعيد، والرغبة فى المعرفة هى المسئولة عن الشواطئ التى رسا عليها، والجزر التى لجأ إليها، بحثاً عن فيروز الشطآن، وعن اللؤلؤة ذات الأصداف السبعة. ومن هنا كان فضول المعرفة وعطش العلم والرغبة فى الكشف عن التيه والتعرف عليه أقوى من الرغبة فى التجمل الفنى.)

الغابة عند مصطفى محمود ليست شكلاً يوصف، وليست صورة تشاهد؛ وإنما هى «إحساس، مذاق، طعم، رجفة فى القلب» ومن ثم فإنها لا يمكن أن توصف لأن أي وصف يزرى بجلالها. إنها الغابة وهى الغاية أيضاً. وهى ليست شيئاً تمتلكه وإنما هى إحساس يتملكك. ورحلة مصطفى محمود بهذا الشكل رحلة في الداخل. فى ضمير الغابة. وإنسان هذه الغابة هو الإنسان على الحقيقة. الإنسان يعانق صباح الخلق الأول كما يعانق فجر مسائه الأخير، دون زيف أو مغالطة. الإيمان بالأسلاف والتناغم مع الطبيعة هما السمتان الرئيسيتان فى حياة الإنسان الإفريقى: إنسان الغابة. أما الأسلاف فإنهم رمز الفحولة والبطولة والعلم بأسرار الكون. وأما الطبيعة فإنها رمز القوة والخير والحياة باعتبارها رمزاً للأنوثة، ومن الزواج بين هذين العنصرين تقوم كل حياة وينشأ كل وجود.

وفى رحلته إلى الغابة يتحدث عن «الماو ماو» و«السودان» و«النيام نيام» و«الشيلوك» و«الدنكا» و«النوير والبارى واللانجو والبونجو والدوبى» و «الدنكا». العقائد، القبائل، العادات، الحدود الجغرافية لكل،

الأقنعة، الأطعمة، الرقص، التناغم مع الطبيعة. وصف الحياة على حقيقتها وطبيعتها وبساطتها وطهارتها كما وجدها عند القبائل البدائية. إنها الغابة الحقيقية أو مناخ الاجتماع، وليست خطوط الطول والعرض. لذا فإن أقصر الطرق إلى الغابة هو الطريق الذى يسير عبر الخط الانساني. وهذه هى نقطة انطلاق مصطفى محمود عبر أحراش الغابة؛ بحثاً عن أحشاء الإنسان، عن روحه الدفين، عن ضميره الحي، عن الانسان بما هو إنسان. وكان لزاماً عليه - والحالة هذه - لكى يلتقى بهذا الإنسان أن يخلع ثوب السائح، وأن يتعرى من أغطية المدينة، وأن يتحرر من كل ما من شأنه أن يحول بينه وبين لقاء الإنسان بكل بساطته، وبكارته، وإحساسه الطبيعى الأول. هذا الانسان هو الذي غنى معه مصطفى محمود ورقص، غنى فى نشوة، وضحك فى إشراق، وارتمى على صدر الطبيعة مرتداً إلى ما فى داخله من إنسان. يقول: (طفولة الانسانية الحلوة، كنت أراها حولى، الطفولة بكل براءتها، وخطاياها، ومرحها، وانطلاقها النشوان، كانت ترقص على نقرات أشجار التيك المجوفة. لا يسترها شيء، لم يكن عند واحد من هؤلاء الأطفال الكبار شيء يخيفه. كل منهم كان يغنى من أحشائه. وكان يعطى نفسها كلها للحظة التى يعيشها. لا افتعال، لا خجل، لا تمثيل، لا غرض من وراء أي شيء، وإنما الكل يرقص لأنه فرحان، لأنه يعيش، بجماع قلبه).

ويحدثنا عن دور المرأة فى القبيلة، وموقعها فيها. وتناول العلاقة بين المرأة والرجل، وكيفية الاحتفال بالزواج، وكيف يمكن للرجل أن يتزوج أكثر من امرأة، وزوجته تساعده على ذلك. وأن عقيدة «الماو.ماو» تشبه إلى حد كبير الأديان السماوية. فهم يؤمنون بإله واحد يسمونه «موجاي»، والله

عند «الچيكويو» كبير ليست له معابد وإنما أشجار مقدسة؛ والصلاة عندهم تؤدى وقت الحاجة فقط. والسحر جزء لا يتجزأ من حياة «الماو.ماو» وهم يسحرون لجلب الحب والعلاج والزرع. وكلامه عن المرأة كان صريحاً متحرراً. عزفها للربابة، وعاداتها فى حالة موت الزوج، وسفورها، وعادة العرى عند قبيلة «الدنكا». وهو يفعل ذلك معجباً راضياً مدافعاً عن القبائل البدائية، ساخراً من الحضارة الحديثة؛ إذ إنه يؤمن بأن العلم المادى أضاء لنا البيت ولكنه لم يضىء لنا قلوبنا، وأنه قدم لنا جاهلية جديدة أسلحتها الغواصات والصواريخ والقنابل الذرية؛ لأنه علم خلا من الدين والروح. وفى أثناء وداعه للغابة ورؤيته حلقة رقص فى قبيلة «الزاندى» يقول: (... وكنت أشعر بدوار غريب مسكر. كنت أشعر أنى عدت إلى أصلى. إلى أهلى. إلى حضن عائلتى. بعد قرون غريبة عشتها طوافاً. متغرباً. بين غرباء لا أعرفهم... فى القاهرة. فى لندن. فى موسكو. فى باريس. فى كل المدن. الناس مهمومون. شاحبون. يسيرون بخطى مثقلات كأنهم على سفر شاق لا ينتهى).

كان هذا هو مدخله إلى (مغامرة فى الصحراء)؛ محاولاً الكشف عن الحضارة الغربية وأثرها فى تلك المناطق من حيث مخترعاتها، والنظم الإدارية للدولة فى مناطق كانت تحكمها شرائع القبيلة. مستعيناً بما سجله الرحالة السابقون؛ متأثراً بخبراته المتنوعة، وثقافته الدينية والأدبية؛ مستهلاً رحلته بأسلوب قصصى حوارى لافت. وقد سيطر عنصر التحليل والمقارنة.. وعندما يتجه إلى الحديث عن ماضى هؤلاء الناس؛ فإنه يستعين بالدراسات العلمية وكتابات الرحالة الذين سبقوه من العرب ومن الأوربيين. وإن كنا نلاحظ أن أغلبهم من الأوربيين الذين وفد بعضهم مع

جيوش الاحتلال الأجنبى لتلك البلاد. وهنا فإن لنا أن نتوقع أن تكون لغته تقريرية وليست أدبية. أيا ما كان الأمر فإن رحلته إلى الصحراء حاول أن يجد فيها «فردوسه المفقود» بعد أن وجد فى «الغابة»، «فردوسه المستعاد» كما يقول جلال العشرى.

لم نصادف فيمن سبق من الرحالة القدامى والمحدثين واحداً تستند كتاباته إلى السخرية، والنقد اللاذع، مثل محمود السعدني. فهو ساخر عندما ينتقل متخذاً موضوعه وسيلة الانتقال وما يحيط بها. وهو لاذع عندما يقدم الشخصيات التى يصادفها فى رحلاته. وهو ساخر حين يصور الحدث الذي ينقله. وهو لاذع عند المقارنة بين ما يشاهده وما سبق له أن شاهده فى مجتمع آخر. والنكتة سلاحه، حتى وإن استخدمها معلقاً بها على سلوكه هو وموقفه هو وكلامه هو.

ولمحمود السعدنى أكثر من كتاب يدخل فى هذه الدائرة. وما كتابه «الجزائر أرض اللهب» «إلا بداية لنقل ما كان يفور ويمور على الأرض الجزائرية. ثم جاءت كتبه «الموكوس فى بلاد الفلوس» ، «السعلوكى فى بلاد الافريكى» و«بلاد تشيل وبلاد تحط» و«ورحلات ابن بطوطة». فى كل منها كان متميزاً. فى الأولى ذهب إلى إنجلترا بهدف علاج ابنته هالة التى أصابها الشلل، فى الستينيات. وصف النوادى والحدائق والشوارع. إلى جانب صور من الحياة الاجتماعية تكشف عن المجتمع الغربى وحضارته المادية. وأثناء ذلك أشاد بمجتمعه المصرى وتقاليد شعبه والمثل الاخلاقية التى يتحلى بها؛ وإن بدا متخلفاً عن ركب الحضارة. ومع ذلك فإنه أعجب بتقديسهم للواجب، والعمل الجاد، وممارستهم الحرية على كل المستويات.

وقد ساق قصصاً كثيرة فى أسلوبه الساخر عن الشاعر الأرزقى، وعن زيه ومعطفه وحذائه وطاقية رأسه؛ جامعاً بين العربية الفصحى والعامية، وتناول رجال السياسة؛ ونقد السلوك والعادات والتقاليد نقداً مراً لاذعــاً؛ لكنه وقف معجباً بالمـــعارضة وأسلوبهـــا، ومنـــاخ الحــرية الــذى تتنفس فيه..

ويمكن الإشارة إلى كتابه (مسافر على الرصيف). إنه لم ينتقل، ولم يرحل إلى مكان بعيد، ولكنه ظل قابعاً فى مقهى كانت موجودة تتوسط ميدان الجيزة فى عصره الذهبى. يقول واصفاً رحلته : (إن أعظم رحلاتى فى الحياة كانت بلا سفر رحلة ساكنة ومستقرة وهادئة فى نظر البعض رحلة قطعتها عبر سنوات طوال على مقعد فى مقهى بلدى بالجيزة هى قهوة عبد الله. وعبد الله رجل بلا شأن ولا ذكر ولكنه مثاب رغم أنفه فقد دخل التاريخ من أوسع أبوابه وفى هذا المقهى الذى كانت أنواره باهتة ومقاعده مهشمة ورصيفه أعرض من حظه وشهرته أوسع من مساحة الميدان الذى كان يطل عليه)

وصف لنا المقهى وصفاً دقيقاً، وتحدث عن كل شخص ارتبط به بشكل أو بآخر، سواء كان من الأدباء أو من الناس العاديين. فهى أشبه بميناء يتردد عليه الركاب وأصحاب المصالح والشيالون والنشالون والمودعون. وسياحة محمود السعدنى داخل المقهى هى أطول رحلاته إذ إنها امتدت عشر سنوات كاملة، تنقل خلال هذه الجزر الخصبة والصحراوات المجدبة؛ ولكنها بخيرها وشرها كانت حياة حافلة وجامعات كبرى للفلسفة والتاريخ والفن والأدب وعلم الحديث والكلام وفن النكتة.

اختار السعدنى نماذج بشرية لامعة لتمثيل مصرفى آونة معينة وهى عهد الرئيس جمال عبد الناصر، وبين عمل كل شخص، وتأثره بالظروف المحيطة، وتأثيره فى المجتمع، وكيف استمر، أو كيف انتهى دوره، ومن خلال كل شخص قدم صورة بانورامية للمجتمع؛ ولطبقاته المتنوعة؛ وللاتجاهات الفكرية والسياسية والعقدية. وتقديم السعدنى يدل على أنه عاش كل من قدمه؛ بل إنه احتك به احتكاكاً مباشراً دون تعال وبلا مباهاة. واتسم تقديمه للشخصيات بالحركة، والحيوية، والتدفق. لأنه ينطلق من رؤية واقعية منحازة للمجتمع بمختلف طبقاته؛ وبخاصة الطبقات الدنيا فيه.

واختفت صورة المرأة من المقهى. لأن المجتمع آنذاك لم يكن يسمح بذلك.

ويبقى السؤال قائماً : هل يمكن اعتبار «مسافر على الرصيف» رحلة ؟ إذا كانت الإجابة بنعم؛ فإن الأمر يستلزم دراسة مثيلاتها؛ والوقوف عند لغتها؛ وعنصر السخرية فيها؛ وإلى أى حد وفقت فى تصوير المجتمع المصرى فى الفترة التى حددها الكاتب ؟!

بيد أن صبرى موسى الأديب الصحفى الذى حصل على جائزة الدولة التشجيعية فى الرواية ١٩٧٤ عن روايته (فساد الأمكنة) فإنه سجل ثلاث رحلات له فى أعوام متعاقبة؛ الأولى (فى الصحراء) نشرت لأول مرة فى الكتاب الذهبى - ابريل ١٩٦٤. والثانية (فى البحيرات) وقد نشرت طبعتها الأولى فى الكتاب الذهبى أيضاً ١٩٦٥ - والثالثة بعنوان (الغذاء مع آلهة الصيد) ضمن الأعمال الكاملة أخيراً.

عن الرحلة الأولى يقول : (هى رحلة ساذجة. الهدف منها أن أغسلكم بالشمس. أن أضع كلاً منكم أمام نفسه؛ ليتفرج عليها، ويكتشفها). قام برحلة فى الصحراء الشرقية؛ التى تبلغ مساحتها ٢٢٢,٠٠٠ كيلو متر مربع؛ أي أقل قليلاً من ربع مساحة جمهورية مصر كلها. وقد بدأها يوم الأحد الخامس عشر من ابريل ١٩٦٣. استندت إلى شخصيات حقيقية واقعية : الشيخ على - الحاج ناصر - الاسطى صالح- الاستاذ متولى - فؤاد شال. صور لنا حياة الناس فى العبابدة. وكيف يعيش بعضهم داخل منجم «منجم الدرهيب» حيث يحفر الرجال أنفاقاً وممرات وشوارع؛ حتى يتحول جوف الجبل إلى مدينة أشبه بمدن النمل. ويصور لنا المرأة العبابدية، التى لا تتزوج إلا عبابديا مثلها، ولا تسمح لأى رجل أن يقع بصره عليها. فهى مغطاة من الرأس إلى القدم. تملك قدرة جبارة على العناد. فقد ولدت دون ماء وعاشت بين الأحجار. ووصف طريقة الزواج فى هذه البيئة. وارتباط الناس بقطب الأولياء وإمام الأصفياء «أبو الحسن على الشاذلى».

فى الرحلة الثانية استخدم قارباً رفيعاً من خشب الجميز المصرى العتيد؛ وتجول عبر بحيرات الدلتا السبع؛ بهدف تقديم استعراض صحفى عن البحيرات قبل الاحتفال باستقبال بحيرة ناصر التى تصنعها مياه النيل فى الجنوب وراء السد العالى، وتغطى بها بلاد النوبة القديمة وجزءاً من السودان. وقد صحب الكاتب الفنان هبة الرسام. وعرفنا من خلال كلماته الواصفة الموحية الدالة بحيرة دكو، والمنزلة، والبرلس. كما لاحظنا استعانته بمؤرخين فرنسيين ومصريين. ونقل عنهم بعض الفقر والمعلومات.

بقيت رحلتان في پاريس واليونان؛ ضمهما في كتابه (الغذاء مع آلهة الصيد) بعد تجواله في الصحراء وفي البحيرات؛ يقول : (... ورغم ذلك كله، فقد صدمتني الطريقة الأجنبية في الحياة، صدمات نفاذة ورفيقة قلقلت أعماقي شبه المستقرة؛ وأعادت إلى روحي قدرتها على الدهشة والشغف. كان ذلك وعام ١٩٧٢ في أوله.

وعدت من تلك الرحلة السريعة في باريس واليونان وأنا أقول لنفسي : لا يكفي أن تعرف مصر لتكون مصرياً، بل عليك أن تعرف العالم الخارجي وتلمس قلبه الداخلي بإدراك؛ لتكون مصرياً نافعاً حقاً). لم يقم بمقارنات. ولم يقدم حكماً ومواعظ. اكتفي بوصف ما هو موجود. تفاصيل الحياة اليومية في پاريس، العمل العام، المرأة شريكة وليست تابعة، الجد، اللعب، الحرية، السينما، وغير ذلك. أما في اليونان فإنه استمتع بالجلوس إلى الماضي.

لم يغادره حسه القصصي والصحفي، وأسلوبه الأدبي، وهو يكتب رحلاته. لم يغفل قارئه؛ ولم ينس ذاته؛ وكانت المعلومة المغلفة بورق ناعم شفيف هدفه؛ لكنها لم تقدم بسذاجة؛ ولا بعنف، وإنما تسللت بخفة.

هناك رحلات بحرية كثيرة جداً؛ كانت تدور حول البحر من أول كلمة حتى آخر كلمة. البحر لا باعتباره وسيلة، ولكنه وسيلة وغاية. وتصوير ما في جوفه، وما يجري على سطحه، وما يمور في أعماقه، هدف أساسي . وقد توفر الأستاذ احمد محمد عطية على دراسة أدب البحر في القديم وفي الحديث؛ في عالمنا العربي، وفي الأدب الأوربي. طبعته دار المعارف ١٩٨١؛ ووقف عند بعض الرحالة الذين استغرق البحر أعمالهم، منهم من

أشرنا إليهم؛ ومنهم من لم يدخل فى موضوعنا بشكل مباشر. ومن كتاب القصة المعاصرين اثنان كتبا رحلتيهما عن البحر، وبعنوان (البحر). الأول هو صالح مرسي ١٩٧٣. وقد قام برحلة بحرية على ظهر سفينة مصرية عبرت البحار والمحيطات ومرت بموانئ أوربا الجنوبية (اليونان - يوغوسلافيا - ايطاليا - فرنسا - أسبانيا - البرتغال) ثم عبرت المحيط الاطلنطى إلى جزر الآزور وكندا وبحيرة أونتاريو. الثانى هو فتحى غانم ١٩٧٠ صور لنا رحلة بحرية فوق مياه البحر الأحمر مارة بالجزر المرجانية الصغيرة التى لا تظهر فى الخرائط، وحتى جزيرة «أبى كيزان» المرجانية الواقعة فى جنوب البحر الأحمر، قرب الشاطئ السودانى حيث يعيش ثلاثة من البحارة المصريين حول منار الجزيرة. وقصة هؤلاء الثلاثة هى الخيط الرئيسى الذى يشده إلى سفينة مصرية تطوف به فى عالم البحر. وهو يجمع بين تشويق الفن القصصى ومزيج من أدب الرحلة، والتحقيق الصحفى.

فى ذات الاتجاه يكتب خيرى شلبى رحلته على ظهر سفينة حكومية؛ كانوا بسبيل البدء فى تشغيلها؛ ودعوه كصحفى للاشتراك فى هذه الرحلة. ودون ملاحظاته عن مشاهدته للموانئ التى كانت ترسو عندها السفينة، فى كتاب بعنوان (فلاح مصرى فى بلاد الفرنجة) طبعته دار المعارف ١٩٧٨ فى ٢٤٣ صفحة. وقد بهره التقدم التكنولوچى والعلمى، وتغير النظم والعادات الاجتماعية؛ وموقفه هو كفلاح يواجه - لأول مرة فى حياته - هذا اللون من الحياة. وقد فرضت ذاته على الرحلة بشكل لافت جداً؛ حتى إنه لم تخل صفحة من وجودها.

ويقوم طاهر أبو فاشا برحلة إلى الولايات المتحدة الامريكية؛ ويسجلها في كتاب بعنوان (وراء تمثال الحرية) دار المعارف ١٩٧٨، يحدثنا فيه عن النظم الدولية، وعالم ناطحات السحاب، ووسائل النقل، والعادات والتقاليد وسلوك الناس وأعرافهم الاجتماعية؛ ويختار نماذج من الامريكيين من السوق ، أو أحد البوابين. ويقارن بين ما يجرى هناك وما يحدث فى مصر. ويسلط الضوء على الأديان هناك؛ ودور أمريكا السياسى.

أما مفيد فوزى فإنه يقوم بجولة صحفية يزور فيها إحدى عشرة دولة عربية وأجنبية؛ فى أزمنة متفرقة، ثم يضمها جميعاً فى كتابه (جواز سفر إنسان). فيحدثنا عن أسبانيا التى زارها ١٩٧٥، وفرنسا ١٩٦٣، والأردن ١٩٧٥، وتونس ١٩٦٨، وسوريا ١٩٦٣، وتركيا ١٩٧٠، ولبنان ١٩٧٥، ومراكش ١٩٦٩، وايطاليا ١٩٧٥، وقبرص ١٩٦٤، واليابان ١٩٦٢. يذكر اتصالاته بالأدباء والفنانين؛ ويصور الأماكن تصويراً خاطفاً؛ والمرأة يبحث عنها فى كل مكان يذهب إليه، وحواراته مع الأدباء يسجلها؛ وكذلك جلساته فى المقاهى والمنتديات.

وتكتب أمينة السعيد (مشاهدات فى الهند) ١٩٤٩ وكانت قد دعيت لحضور مؤتمر نسائى فى حيدرأباد. وصفت بالتفصيل كراتشى ، وشاطئ كليفتون، والهنديات، والمعتقدات، والثقافات؛ وتعدد ذكر المرأة الهندية فى هذه الرحلة؛ وهو أمر طبيعى لأن المؤتمر خاص بها. وتخرج خديجة صفوت من السودان إلى الصين عضوا فى وفد نسائى سودانى، فتكتب رحلتها فى (أفراح آسيا)، وكذلك تفعل كريمة كمال التى دونت

رحلتها الصحفية إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى (بنت مصرية فى أمريكا). أما عبد المنعم سليم فإنه يكتب عن (أوربا ١٩٧٤)، وكمال الملاخ (صالون من ورق)، ومحمود عوض (مصرى بمليون دولار)؛ ومصطفى بهجت بدوى (رحلات جادة مرحة)، ومحسن محمد (لاعجيب إلاّ الصين)؛ ومحمد مصطفى غنيم (دنيا عجيبة)، وعبدالرحمن بدوى (مذكرات دبلوماسى غير مدونة)؛ وسعد الفطاطرى (هذه السوداء أحببتها)؛ وفاروق جويدة (بلاد السحر والخيال)؛ ود.سمير محمد خواسك (فى بلاد العبابدة)١٩٨٠، وفتوح نشاطى (يوميات فنان فى باريس) ١٩٧١؛ وعبد الستار الطويلة (الانسان الأوربى فى الجد واللعب)؛ ويكتب لويس عوض (مذكرات طالب بعثة)، وحامد سليمان (١٠٠ يوم فى أحراش افريقيا)، وحسين قدرى (رحلة إلى جزر كناريا) و (هروب إلى الفضاء)، وعبد السلام العجيلى (حكايات من الرحلات)، وعبد الله الطوخى (النهر)، وفتحى سعيد (السفر على جواد الشعر)، ويحيى حقى (حقيبة فى يد مسافر). ويمكن للباحث أن يحصي عشرات من كتب الرحلة الحديثة، التى كتبها معاصرون.

إن الناظر فيما كتبه المحدثون فى هذا المجال الأدبى، سوف يجد أنهم اتجهوا فى الأغلب الأعم نحو أوربا. وقلما اتجه بعضهم نحو الشرق الأدنى. كما أنهم لم يحتفلوا كثيراً بنقل رحلاتهم إلى البلاد العربية فى ثوب أدبى. فى حين أن القدماء كانوا يجعلون حركائهم داخل البلاد العربية ، طلباً للعلم، أو رغبة فى النقلة والترحال، أو طلباً للحديث، أو محاولة للاستكشاف. وقبل هذا يسعون من أجل أداء فريضة الحج.

ويرتبط بهذا أن الاتجاه إلى أوربا صحبته رؤية حضارية، بدت واضحة فى كتاباتهم، فى محاولة للمقارنة بين الحضارة العربية القديمة، والحضارة الأوربية الحديثة، سيراً على النهج الذى انتهجه رفاعة رافع الطهطاوى فى بداية عصر النهضة الحديثة. وربما كان الكاتب المعاصر يعتبر أن هذا الهدف غاية أساسية من رحلته.

وقل من كتاب الرحلة الأقدمين من كانت رحلته فى الزمان، مثل الدكتور حسين فوزى الذى ارتحل إلي التاريخ الفرعونى القديم مستعيناً بكتب الحضارة الفرعونية من ناحية، وبمشاهداته للآثار الباقية من تلك العصور من ناحية أخرى، ثم إنه عندما ارتحل إلى بلاد الأندلس، اتجه فيها نحو الآثار العربية على نحو خاص؛ لكنه مع ذلك لم ينس الحاضر وثقافته، وراح يعقد المقارنات الحضارية والفكرية والثقافية. كانت وسيلته إلى ذلك الرؤية والمشاهدة أولاً؛ ثم القراءات فى تاريخ الحضارات بعدئذ. وقد استخدم فى رحلته السيارة وسيلة ينتقل بها من مكان إلى آخر. وهى وسيلة تختلف عن تلك التى كان يتوسل بها الأقدمون.

يضاف إلى هذا أن كتاب الرحلة فى العصر الحديث لم يعودوا يحفلون بوصف الشخصيات، وطرق معيشتهم، وأزيائهم، قدر عنايتهم بمظاهر الحضارة، والتطور الذى وصلت إليه بعض البلدان الحديثة التى قطعت شوطاً فى المدنية، وأضافوا إلى إعجابهم بالمظاهر المادية، ولعاً خاصاً بالتطور الفكرى والثقافى والتكنولوچى، وهو ماركزوا فيه كتاباتهم. كما عنوا بألوان السلوك والقيم الجديدة المستندة إلى أساس حضارى وعلمى؛ فى محاولة لنقل صورة الإنسان الجديد، الذى تستلزمه حضارة العصر الحديث.

وقد تنوعت اهتمامات كتاب الرحلة فى العصر الحديث؛ كما تعددت تخصصاتهم العلمية والأدبية والفكرية. وهذا يعنى أن من أصبحوا يكتبون فى أدب الرحلة لم يعودوا من العلماء وحدهم، ولا من الجغرافيين وحدهم، ولا من رجال الدين والمفسرين والشراح. بل إن الملاحظ أن هؤلاء لم يعودوا يكتبون فى هذا اللون الأدبى. وأصبحنا نقرأ أدباً يدور حول رحلة قام بها شاعر أو صحافي أو سياسي أو أديب. وقل أن نجد رجلاً من رجال الدين، أو عالماً من علماء اللغة، يقدم على كتابة هذا اللون من الأدب النثرى. بل إنا سجّلنا لبعض الكاتبات تجارب فى كتابة رحلاتهم إلى الهند، أو إلى أمريكا، أو إلى أرض المعجزات، ولقد أضيف إلى شكل الرحلة التقليدية شكل هو ما يمكن أن نسميه الرحلة إلى الفضاء، أو الرحلة العلمية الاستكشافية؛ بالمعنى الموضوعى الدقيق لكلمة «علم». بقصد التجربة والبحث. وهو ما قد نجده فى كتاب (هروب إلى الفضاء) لحسين قدرى. والطائرة الآن وسيلة الجميع للترحال.

وثمة مسألة خاصة بالصياغة. إذ صيغت الرحلة فى الأدب الحديث صياغة قصصية. وانحصر دور صاحب الرحلة فى الحكي، والسرد، رغم حرصه على إبداء وجهة نظره الخاصة، التى يصوغها صياغة مباشرة. ومن ثم أصبح عنصر التشويق سمة واضحة المعالم؛ يحرص الكاتب عليها عند صياغة رحلته. وهو تشويق دفعت إليه ظروف القارئ المعاصر. وإذا كنا قد أشرنا فيما سبق إلى أن بعض كتاب الرحلة فى القديم يلجأون إلى ما يملون عليه ليكتب؛ فإن هذه الظاهرة اختفت تماماً فى العصر الحديث، وأصبح الكاتب مسئولاً عن كتابة رحلته وعما تتضمنه من فكر وآراء.

كما أن شخصيات الحكام لم تعد تثير الكتاب - كتاب الرحلة - ذلك أن الأقدمين استهدفوا زيارة الحكام والسلاطين والأمراء، فقد كان ذلك يستهويهم، وكثيراً ما كان الحكام يلعبون دوراً مهماً في الانفاق على الرحلة واستضافة القائم بها. بيد أن كتاب الرحلة في العصر الحديث يقومون برحلاتهم إما على نفقة الصحيفة التي يعملون بها، أو المؤسسة التي ينتسبون إليها، وإما على نفقتهم الخاصة، ومن ثم فإن لقاءاتهم بالسياسيين والحكام قد تأتي في المرتبة الأخيرة؛ وقد لا تأتي على الإطلاق، إذ إن العلاقات الاجتماعية الجديدة، والفئات الجديدة، وصور الحضارة الحديثة، والأحداث الآنية؛ هي التي تشغلهم بالدرجة الأولى.

وإذا كانت صورة المرأة قد غابت عن كتب الرحلة في الأدب القديم؛ فإنها لم تعد كذلك فيما يكتبه المحدثون، فقد اهتمت كتب الرحلة بوجود المرأة اهتماماً ملحوظاً، لم تغب صورتها عن كاتب من الكتاب؛ اللهُمّ إلاّ بعض من خصوا الصحراء برحلتهم كأحمد حسين وأحمد محمد حسنين، لكنها موجودة في الكتب الأخرى، بل إن بعض الأدباء كان يصحبها في رحلته؛ كالدكتور حسين فوزي، الذي صحب زوجته في سيارة أثناء قيامه برحلته إلى المغرب.

ويلاحظ أيضاً أن المرأة لم تعد تجسيداً للجنس أو رمزاً للحضارة المادية، ولكنها أصبحت تمثل صورة الإنسان الحديث، وهي الانسان النموذج الذي تأثر بعوامل حضارية ارتفعت بفكر الانسان، وسلوكه، وقيمه، ودوره في الحياة العامة.

وفي بعض كتب الرحلة الحديثة نجد أن كاتبها لم يعد يخجل من ذكر بعض المسائل المتعلقة بنوع العمل الذي قد تفرضه عليه نفقات رحلته، حين يضطر إلى أداء بعض الأعمال التي كانت تعتبر في القديم

غير ذات شأن بالنسبة للأديب أو المفكر أو الرحالة. كأن يغسل الأطباق؛ أو يعمل بخدمة الآخرين؛ أو نادلاً فى مقهى أو كناساً فى شارع. لكن هذه الأعمال يستغلها الرحالة حين تتيح له أن يلتقط شخصياته ونماذجه من قاع المجتمع الذي ارتحل إليه. بعيداً عن الحكام والسلاطين والأمراء. ليرى انعكاس الحضارة والتقدم على المستويات الاجتماعية التى تعيش فى الدرك الأسفل. ولعل هذا يبرر أن من كتاب الرحلة من اهتم بالجزئيات والتفصيلات المتعلقة بالحياة اليومية والاجتماعية والاقتصادية. بمثل عنايتهم بألوان السلوك والقيم.

وكتاب الرحلة فى العصر الحديث يتوسلون بلغة عربية سهلة مقروءة، لا تعقيد فيها ولا تزيين. لغة تخلو من المحسنات البديعية والبلاغية. وتسمح بألفاظ الحضارة الحديثة؛ إذا لم يتمكن الكاتب من الاهتداء إلى كلمة عربية توحى بأدوات الحضارة الأوربية ووسائلها الحديثة. وهكذا أصبحت اللغة عامل ترغيب وتشويق.

ولم يعد كتاب الرحلة يحتفلون بكثرة المقدمات التى تطول إلى حد كبير. إنهم يعالجون موضوع رحلتهم مباشرة. ويحددون زمانها، ومكانها، والدوافع إليها، فى كلمات محددة، وفى جمل معدودة، وفى عبارات واضحة، ودون إفراط. فى حين كان الأقدمون يتحدثون فى موضوعات متنوعة؛ لم يكن أغلبها متصلاً بموضوع الرحلة.

هذه فى تصورى هى السمات الجديدة التى نلاحظها فيما يكتب تحت عنوان أدب الرحلة. وثمة قضايا متنوعة قد يثيرها هذا اللون من الأدب. وهو لون لم تقبل الدراسات الحديثة على درسه وتحليله ونقده. وهذه

دعوة مفتوحة للباحثين والدارسين والنقاد كي يتجهوا نحوه. وحسبنا هذه الرحلة الطويلة التى اصطحبناه فيها، وسايرناه فى مشواره الذي قطعه قديماً وحديثاً.

المصادر والمراجع

١ - ابن بطوطة فى العالم الإسلامى
د . ابراهيم أحمد العدوى - دار المعارف (اقرأ ١٤٤) ديسمبر ١٩٨٣

٢ - ابن بطوطة ورحلاته
دكتور حسين مؤنس - دار المعارف ١٩٨٠

٣ - ابن بطوطة ورحلته
شاكر خصباك - مطبعة الآداب ١٩٧١

٤ - ابن خلدون فى ضوء النظرية الاشتراكية
د . عبد الرزاق مسلم ماجد - وزارة الاعلام - العراق - ١٩٧٦

٥ - «ابن خلدون مؤرخا - تاريخ العرب والبربر فى كتاب العبر»
مقال بمجلة عالم الفكر- الكويت- المجلد الرابع عشر- العدد الثانى١٩٨٣

٦ - أبو الهول يطير
محمود تيمور- مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٤٧

٧ - آثار البلاد وأخبار العباد
زكريا بن محمد محمود القزوينى - دار صادر بيروت ١٩٦٩

٨ - أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم
شمس الدين أبو عبد الله محمد احمد المقدسى- مكتبة خياط- بيروت١٩٠٦

٩ – احمد فارس الشدياق
بولس مسعد – مطبعة الإخاء– لبنان ١٩٣٤
(أ) احمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والأدبية
د . محمد احمد خلف الله– معهد البحوث والدراسات العربية/١٩٥٥
(ب) احمد فارس الشدياق
محمد عبد الغنى حسن/أعلام العرب(٥٠)
١٠– أطيب تحياتى من موسكو
« أنيس منصور »
١١– أعجب الرحلات فى التاريخ
« أنيس منصور »
١٢– أدب البحر
احمد محمد عطية – دار المعارف ١٩٨١
١٣– أدب الرحلات
د . حسين محمد فهيم– عالم المعرفة– الكويت– ١٩٨٩
١٤– أدب الرحلات : تاريخه وأعلامه
چورچ غريب– دار الثقافة– بيروت– ١٩٦٦
١٥– أدب الرحلات عند العرب فى الشرق، نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجرى
على محسن مال الله– مطبعة الإرشاد– بغداد– ١٩٧٨
١٦– أدب الرحلات عند العرب فى المشرق
محمد الخضر حسين – بيروت ١٩٧٦

١٧- أدب الرحلات وتطوره فى الأدب العربى
احمد أبو سعد- بيروت- ١٩٦١

١٨- أدب الرحلة عند العرب
د . حسنى محمود حسين- هيئة الكتاب ١٩٧٦

١٩- أعلام الجغرافيين العرب
عبد الرحمن حميدة - دار الفكر - دمشق -- ١٩٦٩ .

٢٠- أعلام الصحافة العربية
د. ابراهيم عبده - القاهرة ١٩٤٤ .

٢١- أعيان البيان
حسن السندوبى - ط الجمالية - القاهرة ١٩٣٢ .

٢٢- الإفادة والاعتبارفى الأمورالمشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر
عبد اللطيف البغدادى - تقديم سلامة موسى - القاهرة - د.ت

٢٣- أنت في اليابان
أنيس منصور .

٢٤- أوراق على شجر
أنيس منصور .

٢٥- أيام في الجزائر البيضاء
أنيس منصور .

٢٦ - البحر
صالح مرسى - روايات الهلال - دار الهلال ١٩٧٣

٢٧- البحر
فتحي غـانم - كتـاب الجمهورية - دار التحـرير للطبـاعة والنشر ١٩٧٠
٢٨- بلاد تشيل وبلاد تحط
محمود السعدني
٢٩- بلاد الله خلق الله
أنيس منصور
٣٠- بين البحر والصحراء
شفيق صبري - دار المعارف - القاهرة ١٩٤٦.
٣١- تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب
أغناطيوس كراتشكوفسكي - ترجمة صلاح الدين هاشم - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٦٥ .
٣٢- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار
ابن بطوطة - مؤسسة الطباعة لدار التحرير للطبع والنشر ١٩٦٦ .
٣٣- تخليص الإبريز في تلخيص باريز .
رفاعة رافع الطهطاوي القاهرة ١٩٠٥.
٣٤- التراث الجغرافي الإسلامي
محمد محمود محمدين- دار العلوم للطبع والنشر- الرياض- ١٩٨٤
٣٥- الترجمة الشخصية
د. شوقي ضيف - دار المعارف - مصر - ١٩٧٩ .

٣٦ – تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر .
د. عبد المحسن طه بدر/ – دار المعارف – مصر – ١٩٦٣

٣٧– التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً .
تحقيق محمد بـن تاويت الطنجى ط١– لجنة التـأليف والترجمة والنشر١٩٥١

٣٨ – التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً .
دار الكتاب اللبنانى للطبع والنشر – بيروت .

٣٩– الجزائر أرض اللهب
محمود السعدنى .

٤٠– جزيرة الجيب
محمود تيمور – مكتبة الآداب ومطبعتها ١٩٦٣ .

٤١– جواز سفر إنسان
مفيد فوزي – دار المعارف .

٤٢– حديث السندباد القديم .
د. حسين فوزى – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٩٤٣.

٤٣– حول العالم في ٢٠٠ يوم
أنيس منصور .

٤٤– ذكريات باريس .
زكي مبارك – المطبعة الرحمانية – القاهرة ١٩٣١.

٤٥- رجل في القاهرة
أحمد رشدي صالح - الكتاب الماسى (رقم ٢٠) - القاهرة - الدار القومية للطباعة والنشر

٤٦- رحلات ابن بطوطة
محمود السعدنى

٤٧- رحلة ابن بطوطة
تقديم كرم البستانى - دار بيروت للطباعة والنشر - ١٩٦٠

٤٨- رحلة ابن بطوطة
محمد محمود الصياد - مجلة تراث الانسانية - المجلد الثالث

٤٩- رحلة مع ابن بطوطة
محمود الشرقاوى

٥٠- الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق
ناجى نجيب - دار الحكمة - بيروت ١٩٨٣

٥١- الرحلة والرحالة المسلمون
احمد رمضان احمد - جدة

٥٢- رحلة ابن جبير
د . حسين نصار - مكتبة مصر للطباعة - القاهرة ١٩٥٥
- مكتبة السعادة القاهرة ١٩٠٨
- دار صادر للطباعة والنشر - بيروت ١٩٦٤

٥٣- رحلة الإمام الشافعى
برواية تلميذه «الربيع بن سليمان الجيزى» نسخة خطية بدار الكتب المصرية

٥٤- الرحلة فى طلب الحديث الواحد
أبو بكر أحمد بن على بن ثابت بن احمد بن مهدى البغدادي - نسخة خطية بدار الكتب

٥٥- رحلة التيجانى
ابو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجانى - تقديم حسن حسنى عبد الوهاب ١٩٥٨

٥٦- الرحلة الحجازية
محمد السنوسي - تحقيق علـى الشنوفى - الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٦

٥٧- الرحلة الحجازية
محمد لبيب البتانونى - مطبعة الجمالية - مصر - ١٩٤٩

٥٨- رحلات السندباد وما جرى له فيها من الحوادث العجيبة والمصادفات الغريبة
دار الشروق - القاهرة - ١٩٧١

٥٩- الرحلات
جمعه وحققه علـى الرضا التونسى - المطبعة التعاونية- بيروت-١٩٧٦

٦٠- الرحلات
د . شوقى ضيف - دار المعارف ١٩٥٦

٦١- الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة .
نازك سابايارد - مؤسسة نوفل - بيروت ١٩٧٩ .

٦٢– الرحالة المسلمون في العصور الوسطى .
زكي محمد حسن – دار المعارف – ١٩٤٥ .
٦٣– رفاعة رافع الطهطاوي
جمال الدين الشيال – دار المعارف ١٩٥٨ .
٦٤– رواد النهضة الحديثة .
مارون عبود . ط١ دار العلم للملايين – بيروت ١٩٥٢ .
٦٥– الاسلام والفكر الجغرافي العربي .
صلاح الدين علي الشامي – الاسكندرية ١٩٧٩ .
٦٦– السعلوكى فى بلاد الإفريكى
محمود السعدنى .
٦٧– الساق على الساق فيما هوالفارياق
أحمد فارس الشدياق – المكتبة التجارية ١٩٢٠ .
٦٨– سندباد عصرى
د. حسين فوزي – مطبعة الاعتماد – القاهرة ١٩٣٨ .
٦٩– سندباد عصري يعود إلى الهند .
د . حسين فوزى – دار المعارف بالقاهرة ١٩٦١ .
٧٠– سندباد إلى الغرب
د . حسين فوزى – دار المعارف – بالقاهرة ١٩٦٧
٧١– سندباد فى سيارة
د. حسين فوزى – دار الهلال – القاهرة ١٩٧٢
٧٢– سندباد مصرى
د. حسين فوزي – دار المعارف – مصر – ١٩٦١ .

٧٣- سندباد في رحلة الحياة
د. حسين فوزي - دار المعارف - مصر - ١٩٦٨.

٧٤- شمس وليل
محمود تيمور - مكتبة الآداب ومطبعتها - ١٩٥٧.

٧٥- عبد الرحمن بن خلدون
د. على عبد الواحد وافي - مكتبة مصر - ابريل ١٩٦٢

٧٦- عبد اللطيف البغدادى (أضواء جديدة على سيرته ومنهجه التاريخى)
مقال بمجلة (عالم الفكر)- الكويت- المجلد السادس عشر- العدد الثالث ١٩٨٥

٧٧- عشرة أدباء يتحدثون
فؤاد دوارة - كتاب الهلال - العدد ١٧٢ - يوليو ١٩٦٥

٧٨- الغذاء مع آلهة الصيد
صبرى موسى - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٨

٧٩- غريب فى بلاد غريبة
أنيس منصور

٨٠- الغايــة
مصطفى محمود - دار المعارف

٨١- **فتوح البلدان**
- الأمام ابو الحسن البلاذرى - راجعه وعلق عليه رضوان محمد

رضوان دار الكتب العلمية العلمية – بيروت – لبنان ١٩٧٨

٨٢- **فتوح الشام**

– الواقدى– ابو عبد الله محمد بن عمر– مصطفى الحلبى– ق ١٩٦٦

٨٣- **فتوح الشام**

– محمد بن عبد الله الأزدى – تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر مؤسسة سجل العرب – القاهرة ١٩٧٠

٨٤- فلاح مصرى فى بلاد الفرنجة

خيرى شلبى – دار المعارف ١٩٧٨

٨٥- فى البحيرات

صبرى موسى – الكتاب الذهبى – دار روز اليوسف ١٩٦٥

٨٦- فى صحراء ليبيا

احمد محمد حسنين ١٩٢٦

٨٧- فى الصحراء

صبرى موسى – الكتاب الذهبى – دار روز اليوسف ١٩٦٤

٨٨- كشف المخبا عن فنون أوربا

أحمد فارس الشدياق – مطبعة الجوائب – قسطنطينية ط٢ ١٢٩٩ هـ

٨٩- لعنة الفراعنة

أنيس منصور

٩٠- المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث

د . لويس عوض - مطبوعات المعهد العالى للدراسات العربية - جامعة الدول العربية

٩١- مروج الذهب ومعادن الجوهر
ابو الحسن على بن الحسين المسعودى- المطبعة البهية المصرية ١٩٤٦؛ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ط٢- التجارية بالقاهرة

٩٢- مسافر على الرصيف
محمود السعدنى-

٩٣- المسالك والممالك
ابو القاسم محمد بن حوقل البغدادى

٩٤- مشاهدات فى الهند-
أمينة السعيد- ١٩٤٩

٩٥- مشاهير الشرق (تراجم فى ق ١٩)
چورچى زيدان - جزءان- القاهرة ١٩٠٢ - ١٩٠٣

٩٦- المشرق فى نظر المغاربة والاندلسيين فى القرون الوسطى.
صلاح الدين المنجد - دار الكتاب الجديد ١٩٦٣

٩٧- مصطفى محمود شاهد على عصره
جلال العشرى - دار المعارف - ط٣ ١٩٧٨

٩٨- معجم البلدان ٥ اجزاء نشرة الدكتور فريد رفاعى ١٩٣٦ وطبع فى بيروت ١٩٥٥

٩٩- مغامرة فى الصحراء

مصطفى محمود – دار المعارف
١٠٠– مقدمة ابن خلدون
تحقيق د . علــى عبــد الواحـد وافــى– لجنة البيان العربى– القاهرة١٩٦٦
١٠١– ملوك العرب
أمين الريحانى – ١٩٢٤
١٠٢– من وحي الجنوب
احمد حسنين – دار المعارف ١٩٥٨
١٠٣– الموكوس فى بلاد الفلوس
محمود السعدنى
١٠٤– الواسطة فى أحوال مالطة
احمد فارس الشدياق – مطبعة الجوائب – قسطنطينية ط[٢] ١٢٩٩هـ
١٠٥– الاوضاع السياسية للعالم الإسلامى من خلال رحلة ابن بطوطة
د . خليل ابــراهيم الســامرائى – دار الحــرية للطبــاعة– بغداد–١٩٨٦
١٠٦– اليمن ذلك المجهول
أنيس منصور

كتب آخرى للمؤلف

١ – مصر وظاهرة الثورة	دار النهضة المصرية	١٩٦٩
٢ – ثورة الجماهير الشعبية	دار الجامعات المصرية	١٩٦٩
٣ – حول الفكر الاشتراكى	دار النهضة الحديثة	١٩٧٠
٤ – دليل القصة المصرية القصيرة	ط١ الهيئة المصرية العامة للكتاب	١٩٧٢
	ط٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب	١٩٨٩
٥ – تطور فن القصة القصيرة فى مصر	ط١ دار الكتاب العربى	١٩٦٨
	ط٢ دار المعارف	١٩٨٢
	ط٣ دار المعارف	١٩٨٤
	ط٤ دار غريب للطباعة	١٩٩٠
٦ – اتجاهات القصة المصرية القصيرة	ط١ دار المعارف	١٩٧٨
	ط٢ مكتبة غريب	١٩٨٨
٧ – القصة القصيرة	دار المعارف سلسلة (كتابك)	١٩٧٨
٨ – الأدب العربى المعاصر فى المغرب	ط١ دار التراث	١٩٧٧
الاقصى	ط٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب	١٩٨٥
	ط١ دار المعارف	١٩٨٠
٩ – بانوراما الرواية العربية الحديثة	ط٢ مكتبة غريب	١٩٨٥
١٠– بحوث ودراسات أدبية	ط١ دار المعارف	١٩٧٨
	ط٢ مكتبة غريب	١٩٨٧
١١– تعريف بالرواية الأوربية	الهيئة المصرية العامة للكتاب	١٩٨١
١٢– فى الرومانسية والواقعية	مكتبة غريب	١٩٨١

١٣- رحلة التراث العربى	ط١ دار المعارف	١٩٨٤
	ط٢ دار المعارف	١٩٨٥
	ط٣ دار المعارف	١٩٨٧
	ط٤ دار المعارف	١٩٩٠
١٤- أوراق من هنا وهناك	دار المعارف	١٩٨٤
١٥- البناء الدرامى للمأساة عند أرسطو	مكتبة غريب	١٩٨٧
١٦- حصاة فى بحر هائج	دار المعارف	١٩٨٨
١٧- الحلقة المفقودة فى القصة القصيرة	الهيئة العامة لقصور الثقافة المصرية	١٩٩٠

رقم الايداع ٩١٨٥
I. S. B. N. 977 - 215 - 047 6

دار غـريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب موضوع « الرحلة » والكتب التى ألفت فى هذا الإطار ، منذ الرحلة التى دونها « ابن جبير » ومن أتى بعده من الرحالة العرب ، الذين سجلوا رحلاتهم فى أسلوب أدبى نثرى ؛ حتى بعض الرحلات التى كتبت فى السبعينيات والثمانينيات من هذا القرن.

ولا ينحصر الخيط الأساسى فى حصر المؤلفات ، أو تتبع الكتب؛ ولكنه يعرف باتجاهات الرحلة، وأبعادها، وموضوعاتها؛ واختلاف أساليب تناول الكتاب للأشخاص. والأماكن ، والأحداث ، وما شابه ذلك. كما أنه يحدد خطوات تطور هذا اللون من الكتابة : شكلاً وموضوعاً ؛ لغة ورؤية. وقد وقف عند عدد لا بأس به من الكتابات التى تمثل علامات بارزة فى هذا اللون من الكتابة. وأشار إلى عناوين كثيرة لرحلات لم يقف عندها. لكنه لأول مرة يتعامل مع رحلات احمد حسين ، احمد محمد حسنين، د. حسين فوزي ، محمود تيمور ، مصطفى محمود ، أنيس منصور، صبرى موسى، محمود السعدنى، خيرى شلبى وغيرهم، بعد أن تعامل مع ما حفل به تراثنا العربى القديم من انتاج فى هذا الميدان.